

سلسلة القصة والرواية (٢)

أرزاق .. يادُنيا .. أرزاق

(مجموعة قصص قصيرة)

علوي طه الصافي


م. سرمد حاتم شكر

منشورات دار الصافي للثقافة والنشر سلسلة القصة والرواية (٢)

أرزاق .. يادُنيا .. أرزاق

(مجموعة قصص قصيرة)

تأليف
علوي طــه الصافي

الناشــر
دار الصافي للثقافة والنشر
المملكة العربية السعودية
ص . ب (٧٩٦٧)
الرياض (١١٤٧٢)

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



الإهـداء

إلى الإنسانة التي جعل الله الجنة تحت أقدامها ..

إلى الصوت الذي غاب عني ولم أزل في الثانية من عمري ..

إلى الحنان الصَّادق الذي فقدته مبكرًا ..

إلى أمي الطيبة التي رحلت عن الحياة إلى الأبد قبل أن أعرف معنى الرحيل الأبدي .. وقبل أن أعرف شيئًا اسمه "الموت" يأخذ الناس دون رجعة ..

إليها في آخرتها داعيًا الله لها في كل حين أن يسبغ عليها شآبيب رحمته التي وسعت كل شيء .. وأن يتغمدها بواسع مغفرته .. ويجعلها من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. وإلى كل أم رؤوم فارقت الحياة .. تاركة من ورائها أطفالاً لم يشتدّ عودهم .. سائلاً الله للجميع أن يشملهن برحمته لقاء ما قدّمن من تضحيات لتربية أطفالهن التربية الصالحة .. وما ذلك على الله بعزيز ..

علوي

•• المقــدمة ••

هذه المجموعة القصصية كُتبت في أوقاتٍ متفاوتة.. عمر بعضها تعدى العشرين عاماً.. وبعضها أقل من هذا العمر.. سعيت جاداً لجمعها من الصحف والمجلات المتناثرة القديم منها والحديث، أجريت قليلًا من التغييرات على القديم منها بحيث لا أمس الجوهر والشكل العام.. ووضعت في نهاية كل قصة تاريخ نشرها لأمنح الناقد والدارس فرصة تتبع المسار القصصي .

وهذه المجموعة لحمتها وسداها الواقع الحياتي والنفسي لشخوصها.. كما أنها ترصد جوانب من المتغيرات والتطورات التي حدثت في بيئة المملكة العربية السعودية.. تقاسمت أحداثها مدن جدة.. والرياض.. وجيزان.. وقد اخترت عنوان إحدى قصصها «أرزاق.. يادنيا.. أرزاق» لشعوري بأن مضامين المجموعة كلها تنطوي تحت هذا «المسمى».. أقول هذا الكلام حتى لا يتصور الناقد أو القارىء أن قصة «أرزاق.. يادنيا.. أرزاق» هي أحسن المجموعة عندي .

ولأني على قناعة أن بعض مظاهر هذه القصص قد تغيب عن حياة الإنسان المعاصر في المملكة.. وبعضهم قد يجهلها.. خاصة المشتملة منها على بعض العادات والتقاليد التي قد لا تتماثل وتتشابه مع غيرها من مدن المملكة.. إضافة إلى أن القارىء العربي قد يكون

بعيداً عنها كل البعد.. ويجهل ماهيتها مما قد تجعله غير قادر على سبر أغوار القصة وفك بعض رموزها .

من أجل هذا وضعت بعض الشروحات والهوامش للتعريف بها.. لأن القصة القصيرة لم تعد مجرد «حدوتة» أو حكاية للتسلية وتزجية أوقات الفراغ.. بل أصبحت مجالًا للدراسات «البيولوجية» و«السيكلوجية».. ورصد جوانبها التاريخية نتيجة تداخل أجناس العلوم والفنون الكتابية الحياتي منها والنفسي والاجتماعي والتاريخي والجغرافي .

فالقصة القصيرة اليوم أصبحت تشتمل على مناحي مختلفة من الحياة رغم قصرها.. لأن الرواية الكبيرة باتت في عالم اليوم اللاهث المتعجل مسألة شاقة للقراءة في عصر ازدحم بكثير من المعطيات مثل وسائل الإعلام (راديو – تلفاز – سينما – مسرح – إذاعة – صحافة – فيديو).. إلى جانب غيرها من المعطيات الحديثة التي تكاد تسرق كل وقت القارىء.. وتصادر وقته لمصلحتها .

إنني لا أدعي لهذه المجموعة الكمال.. لأن الكمال لله وحده.. وقد خَرجَتْ بطباعتها وانتشارها إلى ملك القارىء الناقد الذي يستطيع أن يقول عنها ما يريد سلباً أو إيجاباً.. ولا أطلب ممن يقرأها غير شيئين :

● الأول : أن يضع كل قصة في إطارها الزمني.. وهذا ما دفعني إلى وضع التاريخ الذي كُتبت فيه كل قصة.. أقصد تاريخ نشرها .

● الثاني: أن يكون صاحب ضمير حي يقول كلمة الحق بعيداً عن روح «الشللية» و«المزاجية» و«العبثية».. هذه الأمور وغيرها من الأمور التي تفسد النقد.. وتبعد الناقد عن الموضوعية والتنظير والتأصيل والتقعيد النابعة من واقع المجموعة لا على هامشها.

وأرحب بالنقد الموضوعي الصادق لأن مثل هذا النقد هو الذي يساعد المبدع على تخطِّي الهفوات.. وتجاوز العيوب.. لإيماني بعدم وجود نص إبداعي كامل مطلق.

والجميع يعرف أنه بعد مرور فترة من الزمن على أي عمل قد يشعر صاحبه أنه لو حذف شيئاً من عمله من جانب.. أو زاد في جوانب أخرى لكان أفضل مما هو عليه بعد طباعته وانتشاره.. لأن المبدع يتغير بتغير قراءاته وتعددها.. وثراء ثقافته الجديدة.. وهذا يعني أن المبدع ناقد لنفسه!!

وهو مع هذا لا يستطيع أن يبقي على كل أعماله حبيسة أدراج مكتبه.. أو أرفف مكتبته طيلة حياته المتغيرة خشية النَّقد والنقَّاد.

ويبقى عمل المبدع كما أنشأه ملكاً للتاريخ.. وهو لا يموت بالتقادم (مرور الزمن) حسب لغة أهل الفقه والقانون.. والجديد على فضله لا يلغي فضائل وحسنات القديم.. كما أن القديم على ما يتضمنه من ثروة تراثية وإبداعية.. لا يجحد حق الجديد وفسح المجال أمامه.

ونحن نعرف أن كثيراً من المبدعين في مختلف الأشكال الأدبية

والفنية قدموا نتاجاً لقي في حينه القبول والاستحسان من القراء والنقّاد.. لكن بعد فترة من الزمن رأى صاحبه - المبدع - أن ما قدمه في حاجة إلى التغيير والحذف والإضافة !!

وقد أعلن البعض منهم ذلك.. بل وصل الأمر ببعضهم أنه تبرأ من عمله الذي وجد قبولًا واستحساناً عند النقّاد والقراء.. والأمثلة كثيرة يعرفها كل متابع لحياتنا الأدبية الفكرية المحلية أو العربية أو العالمية !!

والناقد والمبدع ليسا جهاز «كومبيوتر».. إنهما بشر يحكمهما «القصور».. وتعتريهما «المحدودية».. لأن الكمال ليس من صفات البشر مهما بلغوا من مكانة في الأدب والعلم .

والناس وجهات نظر.. وآراء متباينة ومختلفة.. وهذا أمر طبيعي، وظاهرة إنسانية ترفد الحياة بالعديد من المعطيات .

ولو أخذنا الجانب الفكري لوجدنا أنه لولا تعدد آراء المفكرين وتباينها واختلافها في بعض الأحيان ما كان للبشرية هذا الميراث الفكري الكبير .

والعمل الإبداعي وغير الإبداعي بعد خروجه من يد صاحبه وطباعته ونشره في أوساط القراء والمثقفين والنقّاد والدارسين والباحثين يصبح من حق الجميع ولكل فريق وجهة نظره.. بل لكل فرد رأيه الخاص.. وتظل الأمور طبيعية ومعقولة، بل مطلوبة حين لا يتعدى الخلاف وجهات النظر.. أما حين يصل الاختلاف إلى

المصادمات فإن الأمر يخرج عن طبيعته.. ولم يعد مجرد اختلاف في الآراء أو وجهات النظر !!

فاختلاف الآراء يعني الارتفاع بمستوى الحوار عن استعمال الأساليب العاجزة والمتمثلة في الاستعداء، أو توظيف الهراوات، والاشتباك في جدل عقيم يتناول الأشخاص لا الأفكار.. أو وسيلة من وسائل إفراز عُقد النفوس المريضة المسكونة بالتَّشوهات الفكرية، والنزعات النابعة من هذه العُقَد النفسية!!

واختلاف الآراء في الجانب الفكري الإبداعي مسألة تساعد على توسيع مساحة المناقشة، والتركيز على القضايا «المحورية» شكلًا ومضموناً.. وهي تبرز نتيجة اختلاف المفهومات.. وتنوُّع الثقافات.. ونظرة كل صاحب رأي إلى القضية والفكرة والعمل الإبداعي ككل .

وليس بالضرورة أن ينشأ خلاف بين أطراف الحوار في كل قضية، إلا إذا وجد هذا الخلاف الذي قد لا يخرج عن الجزئيات أو الفروع !!

واختلاف الناس في هذه الجزئيات أو الفروع مسألة قد يتحكم فيها الذوق والمزاج حيناً.. واختلاف ثقافاتهم التي تشكل عنصراً هاماً من عناصر الاختلاف حيناً آخر .

وفي الفكر الإبداعي لا يوجد رأي نهائي حاسم كما هو الحال في العلوم التطبيقية التي لا تحتمل وجهات النظر وتعدد الآراء .

ولا توجد تعريفات جامعة مانعة صالحة لكل زمان ومكان لأن الإبداع عبارة عن «رؤى ديناميكية» كالنهر الذي يجري دون توقف.. وهذا ما يمنحه صفة الخصوبة والعطاء المستمر.. ذلك لأن لكل جيل رؤاه وأفكاره وآراؤه.. ويصعب أن يصادر جيل من الأجيال أفكار غيره ورؤاه .

إذن فاختلاف إنسان معك في الرأي لا يعني الخصومة والشجار.. لأن اختلاف الآراء ليست «حلبات مصارعة» أو «ملاكمة».. لهذا، فإن أي اختلاف في الرأي يجب أن لا يتعدى ساحة الرأي بعيداً عن الإساءة إلى العلاقات الإنسانية التي تربط بين الأفراد .

ولو نظر الإنسان إلى كل شخص يخالفه الرأي أنه خصم أو عدو.. وانه يجب أن ينظر إلى علاقاته الإنسانية معه من هذا المنظور فإن الحياة الإنسانية لن تستقيم على حال.. وبالتالي تُنسف كل الجسور ووسائل الاتصال الإنساني بين البشر.. وهذا مالم يقل به عاقل.. ولا يقره منطق العقل السليم .

الأخوان يختلفان.. لكنهما يظلان على صلة حميمة في علاقاتهما.. والصديقان يتنازعان الآراء المختلفة، لكن هذا التنازع لا يفسد الود بينهما

وقضية اختلاف الآراء قضية نسبية.. فأنت حين تنتصر برأيك على الطرف الآخر في مسألة من المسائل فهذا يعني أنه قاصر عن

الحوار وعاجز عن الانتصار لرأيه.. أي أن ضعفه جعل منك قوة.. لكن بالتأكيد هناك من لا تستطيع أن تحقق أمامه مثل هذا الانتصار لأنه يمتلك قدرات تفوق قدراتك.. وبالتالي فأنت ضعيف أمامه.. في الوقت الذي كنت قوياً أمام الطرف الآخر .

والمسألة تتوقف على القدرات الفردية بين المتحاورين.. وهذه القدرات تحكمها عوامل الروافد الثقافية والفكرية، والملَكَات الخاصة الذاتية، وتنمية القدرات .

فالإنسان – أي إنسان – يمتلك مجموعة من القدرات : فإذا استطاع أن ينمِّي هذه القدرات بالاطلاع المستمر الدؤوب، ويغذِّيها بالجديد من القراءات المتنوعة فإن هذه القدرات تتسع وتقوى مع الزمن فتساعد صاحبها على مواجهة كل التحديات الخارجية .

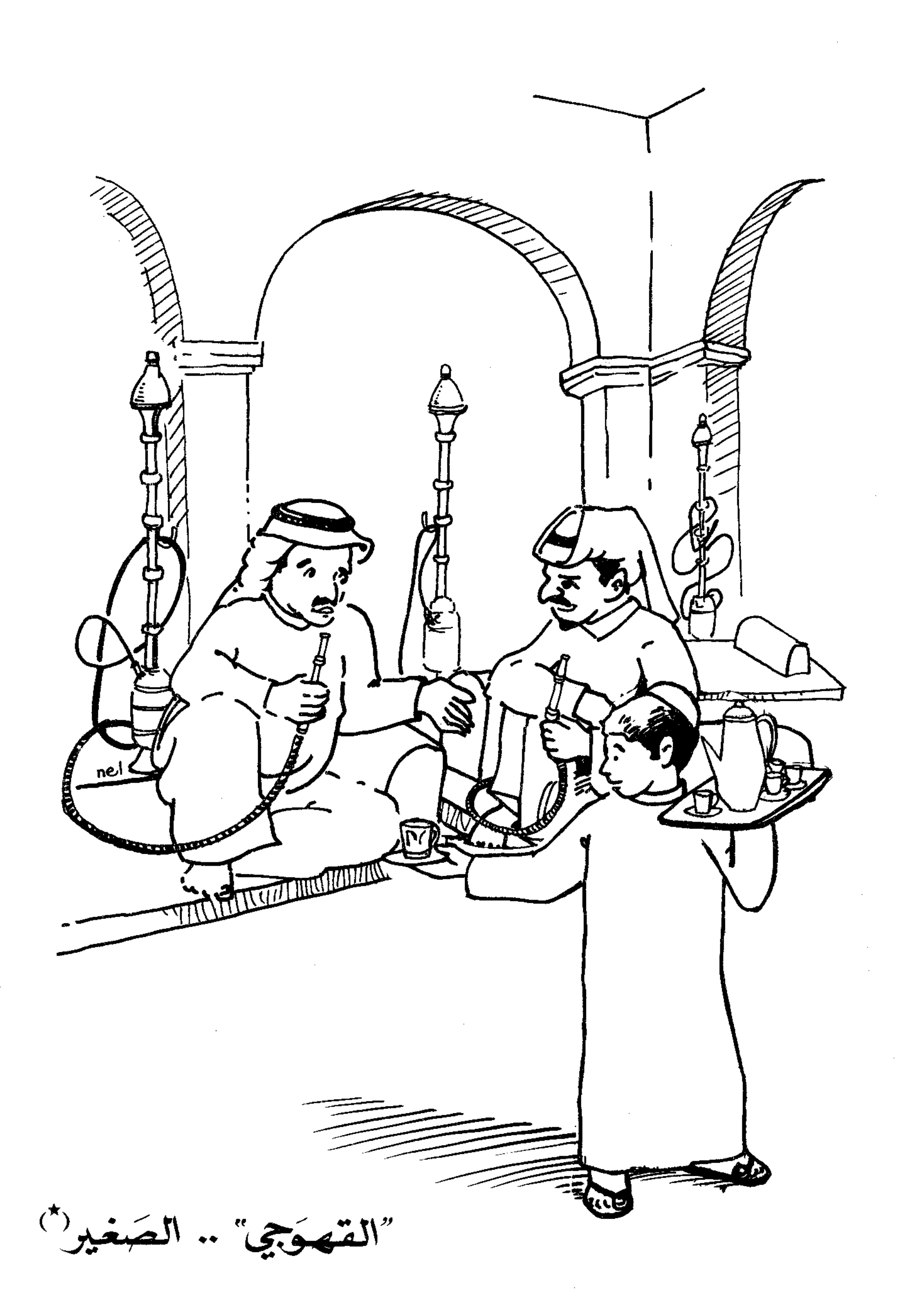
أما إذا تكاسل الإنسان.. وعوَّد قدراته على الراحة والدعة والهرب من المواجهات فإن هذه القدرات بمرور الزمن تضمر وتتراخى، ثم تتراجع إلى الخلف فيتحول صاحبها إلى إنسان عاجز عن تحقيق ما يصبو إليه، قاصرٍ عن مواجهة ما يصادفه في حياته من تحديات ومواجهات.. ولله في خلقه شؤون !!

باختصار.. فإن الفكر الإبداعي ليس عملية «لوغاريتمات» جامدة محددة.. بل ساحة واسعة للأفكار المختلفة.. والآراء المتباينة.. ووجهات النظر المتعددة في محاولة للوصول إلى الأجود والأفضل وما ينفع الناس .

إنني بهذه المقدمة لا أحاول التنصُّل من هذه المجموعة القصصية.. بل أرى أنها تمثِّل عدة مراحل لكتاباتي القصصية.. ولو لم أكن مقتنعاً بها في هذا الوقت رغم مرور عقود من الزمن على بعضها لما قمت بطباعتها وعرضها على الناس .

إنها جزء من عطائي ومعاناتي ورؤاي.. وتبقى كذلك رغم أنها سوف تكون في المستقبل جزء من معطيات أدبنا الذي نسعى جميعاً إلى كل الإضافات التي يقدمها المبدعون.. والحكم في الأخير للناقد الأمين الموضوعي، وللقارىء الذي سيقضي معها جزءً من وقته.. والله الموفق.. ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ .

المؤلف



"القهوجي" .. الصغير(*)



- **قهوجي.. قهوجي**.. صاح أحد زبائن المقهى.. كرَّرها وهو يقتعد **كرسياً «شريطياً»** من الحبال.. كما هي عادة كل مقهى **في جدة.. ومدن الحجاز** التي تكثر خارجها لاستقبال الناس هرباً من حرارة أو رطوبة .

في أيام الصيف تغرق مدينة جدة في الرطوبة و«اللسلسة».. بعض سكانها يذهب إلى المقاهي المنتشرة في **طريق مكة، أو طريق المدينة**.. وبعضهم ممن لا يمتلكون سيارات أوْ لديهم ارتباطات يفضلون الذهاب إلى المقاهي المنتشرة داخل مدينة جدة.. ومجلس المجموعة الواحدة أو الشخص الواحد يسمونه **«مركازاً»** .

في المركاز الذي اختاره الزبون في أحد المقاهي المنتشرة في طريق المدينة اتكأ بظهره على خشبات الكرسي «الشريطي».. رفع رجليه.. وفرد يديه على صارية الخشبة التي تسند ظهره طلباً للراحة.. ورغبة في المظهر .

- **نعم.. نعم.. ياعمي**.. رد الندل أو «القهوجي الصغير».. وجاء للزبون مهرعاً .

● ايش بك يا«واد» انت ماتسمع.. صار لي نص ساعة وأنا «أزهمك»[1] ؟

– **تحت أمرك ياعمي.. لكن مالك نص ساعة.. «دوبك جيت».. لكن سامحني.. طلباتك ؟**

● حجر[2] .. **وشاي أبو أربعة خفيف[3] .. خلِّيه منعنش[4].. بس ما تتأخر !!**

بعبارات جافة رماها الزبون كالمفرقعات في وجه «القهوجي» ابن الثالثة عشرة.. لم يكن أمام «القهوجي الصغير» إلا إجابة الطلب دون امتعاض أو أخذ ورد مع الزبون .

– **ياواد.. ياابراهيم.. صاح صاحب المقهى بصوت أجش :**

● أمرك يا عمي.. وركض مسرعاً إليه .

صاحب المقهى كان يجلس على أحسن وأكبر الكراسي الشريطية.. كان مفروشاً.. وعن يمينه ومن خلفه الوسائد.. على رأسه عمامة.. ويرتدي ثوباً يتمنطق في وسطه بحزام كبير يسمونه «الكَمَر».. له في الوسط ما يشبه شنطة اليد الصغيرة يتألف من عدة طبقات ليضع الريالات ذات القيمة داخلها.. أما القروش فيضعها على الطاولة المنصوبة أمامه حتى يستطيع أن يرد للزبون مايتبقّى له من قروش.. حين وصل «القهوجي الصغير» إليه.. صاح صاحب المقهى في وجهه كالثور :

- يا واد شوف الزبائن.. خلِّيك الشقاوة.. انتبه لعملك.. وعبِّي الحجر !

● أمرك يا عمي

قالها «القهوجي الصغير» وهو يأخذ «حجر الجراك» من على الشيشة الخاصة.. وفي الوقت الذي ركض لتلبية الطلب.. سمع صوت صاحب المقهى يناديه مرة أخرى .

- تعالى.. يا واد.. يا ابراهيم.. غيَّر موية الشيشة .

● حاضر ياعم.. قالها ثم وضع الحجر على الطاولة.. وخلَّص الشيشة من «ليِّها» وركض إلى مكان برميل الماء.. وضع في داخلها ماءً جديداً بعد أن ألقى ما بها من ماء تفوح منه رائحة كريهة لكثرة التدخين في الشيشة.. ثم أعادها إلى مركاز عمه، وأعاد «اللَّي» عليها.. ثم أخذ الحجر وركض إلى كومة النار وبجوارها علبة الجراك الخاصة بصاحب المقهى.. أما الزبائن فيقدم لهم نوعية أخرى متدنية في ثمنها وطعم دخان جراكها[٥] .

بعد أن وضع الحجر الفخاري الدائري الصغير على فوهة الحجر الفخاري الكبير المدور كالقمع تقريباً.. وضع الجراك داخله.. ثم وضع حجراً دائرياً أكبر على مادة الجراك ثم وضع حبات جمر النار عليها وعاد مسرعاً إلى عمه.. وضع الحجر على رأس الشيشة.. سمع صوت الزبون السابق يصيح في ضيق :

– **يا قهوجي.. يا ابن الـ .... أين الحجر والشاي أبو أربعة المنعنش .**

● حاضر.. حاضر ما نسيتك ؟

– **كيف ما نسيتني.. وأنا شايفك تقدِّم غيري.. وتؤخِّر طلبي .**

اقترب منه «القهوجي» وحدَّثه في همس :

● هذا عمي صاحب المقهى.. ما أقدر أعصاه وأقدم غيره عليه.. سيطردني لو فعلت ذلك.. لقد عملها عدة مرات.. وانت باين عليك رجال طيب ما تحب قطع الأرزاق.. دقائق وسيكون الطلب عندك .

هذه هي حالة «القهوجي الصغير» يومياً.. وتزداد شدة حين يكثر زبائن المقهى.. ورغم أن هناك «قهوجية» آخرين يعملون معه إلا أنه هو المسؤول عن طلبات عمه.. وطلبات قسم من هذا المقهى .

المقاهي المنتشرة كراسيها في الهواء الطلق على جانب الطريق المزفت الذي يربط بين **المدينة المنورة ومدينة جدة**.. كثيرة لكن مقهاهم معروف ومشهور يأتي إليها المثقف والأمي والسائق وكل فرد.. إنهم يسمونها مقهى «**كاظم**».. ورغم كثرة المقاهي إلا أن الناس يحبون قضاء وقتهم في هذا المقهى..

«**الدنيا أرزاق**» قالها القهوجي الصغير وهو يضع براد الشاي على طاولة الزبون.. كما يضع الحجر على رأس الشيشة التي أحضرها معه ثم سحب منها شفطتين وقال للزبون :

● لقد اخترت لك أحسن شيشة عندنا .

عبارة يقولها لكل زبون ليرضي خاطره.. ويشعره أن له مكانته

الخاصة في المقهى ليعاود المجيء إليها.. هذا ما يقوله له «عمه» صاحب المقهى ولزملائه من العاملين كل يوم.. وهو في كل يوم يتلقى دروساً جديدة من عمه القاسي في تعامله مع العمال.. تصل في كثير من الأحيان إلى اللطم والضرب وبخاصة هو لأنه أصغر العاملين.. يَدُ العم صاحب المقهى كخف الجمل.. وصوته الأجش المشروخ يخيف الجميع .

● يا واد.. يا قهوجي..

صاح زبون آخر.. أسرع إليه.. تعثَّر فسقط على تراب الأرض.. ثم نهض بسرعة خوفاً من عمه صاحب المقهى.. نفض التراب من على جسمه.. حين وصل إلى مركاز الزبون سمع صوت عمه يناديه :

– **ياواد.. يا ابراهيم**

ارتعش ابراهيم.. وقال :

● اللهم اجعله خيراً .

ترك الزبون وأسرع نحو عمه فاصطدم جسمه بإحدى «شيش» الزبائن.. وتساقط النار على ثوب الزبون وعلى الكرسي.. أحس بألم الاصطدام.. لكنه لم يكن في مقدوره الاعتذار من الزبون.. وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه !!

فجأة.. وهو في هذه الحالة من الاضطراب العام أحسَّ بيد ثقيلة تهوي على خده ورأسه فتصفعه بعنف.. وبلا رحمة.. لم يتمكن «القهوجي الصغير» من معرفة ما حوله.. لقد كانت الصفعات قوية.. شعر معها بالدوخة.. والأرض تدور به فسقط على الأرض.. سمع

شيئاً من كلام عمه الفظ القاسي المعتاد المصحوب بالشتائم .

– ما قلت لك يا واد أكثر من مرة اشتغل زي الناس.. ماتسيبك البهللة.. وقلة الحياء والإساءة للزبائن !!

لم يستطع القهوجي الصغير أن يرد.. لكنه أحس برجل عمه ترفسه يميناً وشمالًا في كل مكان في جسمه.. وهو يزحف على الأرض.. يتحاشى بعض رفسات عمه القاتلة.. فقام بعض الزبائن، وأمسكوا صاحب المقهى.. صاح بعضهم في وجهه :

– خاف الله يارجل.. الطفل صغير مايتحمل كل هذا.. رحمة الأطفال مطلوبة.. القسوة عليهم تقتل في داخلهم كل معاني الحياة الحلوة .

وصاح آخر :

– ما هكذا تربي إبنك.. المفروض أن يذهب إلى المدرسة ليتعلم.. العلم هو الأبقى لابنك .

رد عليه صاحب المقهى.. وهو كالثور الهائج :

– هذا ماهو إبني.. إنه شغّال عندي .

– حتى لو كان شغالًا.. أليس إنساناً مثلي ومثلك يحس ويتألم.. وله حقوقه في هذه الحياة.. ارحم صغر سنه وفقره.. رد عليه أحد الزبائن .

● **مثل هذا النوع مايستاهل الرحمة.. لا يعمل إلا بالضرب..** قالها صاحب المقهى .

● ليس هناك من لا يستاهل الرحمة.. لأن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالرحمن الرحيم.. قالها زبون .

– سبحان الله.. ونعم بالله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. لعن الله الشيطان والغضب.. قالها صاحب المقهى .

– هذا هو الكلام الصح يا عم.. اخز الشيطان.. واترك الطفل .

– خلاص.. أنا ما أبغاه يشتغل عندي.. يأخذ حساب يومه ويتوكل على الله .

قرار صارم أصدره في حق هذا القهوجي الصغير .

– **الأرزاق بيد الله..** رد عليه أحد الزبائن.. وهو يواسي الطفل المسكين المتكوّم جسمه على الأرض من الألم.. شد من أزره.. عامله بلطف.. دعا بعض الزبائن.. أخذوا الطفل وألقوه على أحد الكراسي ثم رشّوا على وجهه ماء.. أفاق الطفل في حالة يرثى لها.. قاوم الألم.. حاول النهوض ليجلس.. عاد صاحب المقهى الفظ الغليظ إلى الطفل وألقى ببعض القروش في وجهه :

– هذه يوميتك.. خذ «بقشة» ثيابك وتوكل على الله.. لا أريد أن أرى وجهك أيها الشقي.. قم يا واد من فوق الكرسي.. اذهب في حالك.. تراها واصلة عندي.. امش حتى لا أرتكب جريمة!!

● صلي على النبي يا رجل.. الواد تعبان.. هو اللي حصل له منك قليل.. بعد ما يرتاح سيتوكل على الله ويمشي.. قال أحد الزبائن .

لكن القهوجي الصغير تحامل على نفسه.. ترك المقهى وفي يده «بقشة» ثيابه.. وقف على الطريق العام بحثاً عن وسيلة تقله إلى مدينة جدة.. وبعد دقائق ابتلعته إحدى سيارات الأجرة في جوفها.. كانت عيون بعض الزبائن تتابعه حتى غابت سيارة الأجرة عن الرؤية !!

(*) نشرت هذه القصة في مجلة «اليمامة» الأسبوعية التي تصدر بالرياض في عام ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٦م كما أذكر لأن العدد فقد مني.. والقصاصة لم يظهر بها تاريخ النشر .

(١) يزهم – زَهَم : ينادي – نادى .

(٢) الحجر : نوع من الفخار يشبه القمع مع شيء من الفارق بينهما.. في فتحته السفلى من الداخل يوضع حجر فخاري صغير.. ثم توضع عليه كمية جراك التدخين بالقدر الذي يريده أو اعتاد عليه المدخِّن.. ثم يوضع على الجراك حجر فخاري أيضاً أو من المعدن في بعض الأحيان مفلطح فخاري أيضاً أو من المعدن في بعض الأحيان.. يحول بين الجراك وجمرات النار التي توضع عليه.. وقد تدخلت الصناعة اليابانية في صناعة «الشيش» المعدنية ويطلق عليها «المطبقية» التي تعمل بواسطة الكهرباء دون حاجة إلى نار .

(٣) أبو أربعة خفيف.. يقصد به أن إناء الشيء الذي يسمى «البرَّاد» يجب أن يحتوي على كمية أربعة فناجين من الشاي.. وهناك بعض البراريد تحتوي على كمية ستة فناجين وبعضها على ثمانية.. أما كلمة خفيف فيقصد بها الشاي.. فالأكثرية يحبونه خفيفاً.. والبعض ثقيلًا أسود مثل إخواننا المصريين .

(٤) منعنش.. يعني وضع نوع من الشجر العطري يسمى «النعناع» أو «الدوش» وهو متعدد الأنواع.. وله مسميات مختلفة في كل منطقة من مناطق المملكة.. فمثلًا في منطقة جيزان يسمونه «الشمطري».. يوضع بين الشاي فيجعل له نكهة لذيذة .

(٥) الجراك.. هو المادة التي تستعمل للتدخين.. وهذه المادة تستورد من الهند.. وقليل من الأسر تصنعه لنفسها في المنازل وبخاصة مدن الحجاز.. وهو عبارة عن معجون مادة التبغ وبقايا الفاكهة.. وهو أنواع.. منه الغالي.. ومنه الرخيص الثمن.. وبعضه يأتي في علب صغيرة.. وبعضه في علب كبيرة.. وبعضه يباع بالكيلو .



زفّوها .. زوّجوها(*)



وردة كانت لم تتفتح.. عصفور تنقصه تجربة الطيران والتجنيح.. كانت في منزل أهلها نجمة صغيرة تضيء زواياه.. وجوانح أبويها.. الكل يحبها .

كان عمرها عشرة أعوام.. لا تعرف من الدنيا شيئاً.. كانت ترى في منزلهم أنه الكرة الأرضية، وأن أباها حاكم هذه الكرة وسيدها.. وأمها.. وهي وحيدتها ترى الحياة من خلال عينيها الواسعتين .

همها الصغير الوحيد أن تسقي عصافير المنزل في أقفاصها، وتقدم لها الحب «المجروش» وبقايا مائدة الطعام من أرز وغيره.. بقية وقتها تقضيه في اللعب مع إخوتها.. تحب أكل الحلوى في الصباح كالأطفال حين تستيقظ.. وأكل «الزّلابية» و«المطبّق» مع السكر أو العسل .

في العصر كانت تشارك بنات حيّها اللعب أمام المنزل لعبة «الاستغماية».. والركض بهدف ودون هدف !!

كان ذلك اليوم مشؤوماً حين وافق والداها على تزويجها من صديقه وشريك عمله.. هذا الرجل كانت تناديه «**يا عم**» احتراماً للأربعين عاماً.. وعلاقته بوالدها.. ومن أجل الهدايا التي كان يحملها

معه ليقدمها لها حين يعود من أحد الأسواق.. مثل سوق «**الثلاثاء**» في مدينة «**صبياء**».. وسوق «**الأربعاء**» في مدينة «**أبو عريش**» أو سوق «**الأحد**».. كان لكل مدينة من مدن منطقتها «**جيزان**» سوقها الأسبوعي .

الزغاريد ترتفع هنا وهناك.. والجميع في حركة.. وهي مشدوهة لا تعرف شيئاً مما يحدث.. ولا سبب هذه الزغاريد التي لا تسمعها إلا في المناسبات كالزواج.. وعودة الحجيج .

كانت تلهو مع أترابها.. وأصوات «**الشحّات**[1]» والطبول تقرع سمعها.. كانت تعيش جو الفرحة.. تقلِّد النساء في زغاريدهن.. وترقص معهن.. تتحرك كما يتحركن .

الشيء الغريب الذي لاحظته أن النساء كنّ ينهرنها عن الاتيان بمثل هذه التصرفات.. ويمنعنها من الرقص.. وتسأل الصغيرة بكل مافي الدنيا من براءة وعفوية :

- **لماذا لا أرقص.. وأعمل ما تعملن .**

- يجيبها الآخرون أنها «**العروس**».. وأن ليلة الغد هي ليلة زفافها.. وأنه عيب عليها أن تتصرف كالأطفال وهي «العروس» سيدة وصاحبة كل هذه المظاهر.. وأن هذا الحفل هو من أجل زفها إلى عريسها .

والمسكينة تنتشي.. تفرح.. دون أن تعرف معنى الزواج وماهيته.. لهذا لم تسأل عن العريس.. وشكله.. وسنه.. كانت سعيدة

بالمناسبة الجديدة على منزلها لأنها لم تشهد عرساً فيه من قبل .

نقشت «**المقيِّنَة**»[٢] يديها ورجليها بالحناء.. الجميع كانوا يحتفون بها.. وهي سعيدة جذلانة بهذه الحفاوة !!

وجاء الغد يحمل معه صوراً جميلة.. وكانت «**المعضيَّة**»[٣] تضع على رأسها الأشجار ذوات الرائحة العطرة مثل «**الوالة**» و«**الحُسْن**» و«**الظفر**» و«**البعيثران**».. وعقود الفل على صدرها وهي مستسلمة.. تتصور أن اليوم عيد.. فالفتيات في أيام الأعياد يعمل لهن كل هذه الأشياء ويسمينها «العَكْرة» .

وجاء المساء فألبسوها الملابس الجديدة المزركشة وأنواعاً من الحلي تزين صدرها.. ثم يجلسنها على «منصة» مرتفعة.. وحولها صويحباتها.. وهي تتلفت إليهن يمنة ويسرة وعلى **ثغرها** ابتسامة كالشفق البكر .

النساء يتوافدن **زرافات ووحدانا** فيمتلىء المنزل بهن.. وقلبها الصغير يدق بالمشاعر والخلجات المتداخلة بين السرور والدهشة.. وأمها تروح وتجيء هنا وهناك.. ثم تأتي إليها لتقبِّلها.. عيونها كانت مسكونة بالدموع.. سألت الصغيرة :

– أتبكين يا أماه ؟

● **لا.. يا ابنتي الغالية.. إن هذه دموع الفرح .**

لأول مرة تسمع عبارة «دموع الفرح».. لم تكن تعرف أن للفرح دموعاً.. لم يكن أمامها إلا أن تسأل فقط وتسمع سواء فهمت أم لم تفهم !! كانت تحس أنها ملكة.. وأن الجميع يطعن أوامرها..

ومشاعرها موزَّعة بين ما هي عليه.. وبين أصوات الزغاريد والطبول والراقصات.. تنظر إليهنّ من علٍ وفي نفسها رغبة لمشاركتهنّ الرقص .

وتنتشي المسكينة.. تفرح.. يدق قلبها دقات لا تعرف لها معنى.. تبتسم من حين لآخر ثم تختفي الابتسامة الصغيرة ويعود قلبها إلى دقاته ارتفاعاً وانخفاضاً ينحني رأسها بوجهه الطفولي على إحدى الوسائد التي حولها.. لقد طال الوقت فداهمها النعاس.. نامت والنساء من حولها في حركة .

يبدأ الهمس بين النساء الحاضرات :

– **مسكينة.. ياعيني عليها.. لقد نامت.. ياحرام.. إنها صغيرة.. لقد استعجلوا تزويجها .**

قالت إحدى النساء :

– من هو العريس.. كيف هو.. ما سنه ؟

سؤال ألقته إحداهنّ فوقع كالقذيفة في أذن أم العروس.. لم تقل شيئاً.. تدحرج السؤال إلى أعماقها كالمسامير الحادة.. ورددت في نفسها «**حكمتك يارب.. اللهم اجعله خيراً.. ساعدها يارب في حياتها الجديدة**».. سارت إلى جهة أخرى مرحبة.. حابسة كل مشاعرها داخل نفسها في صبر المؤمنين الأقوياء مرددة «**اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه**» .

وفجأة ارتفع صوت «الشحات» –الطراطيع– معلنة وصول

العريس في موكب تنيره أضواء «الأتاريك».. يحملها بعض الرجال على أكتافهم.. والعريس يسير وسط الجميع كطاؤوس فرد ريشه.. وعلى وجهه كل علامات الفرح والسرور.. كان أقاربه من الرجال يحيطون به ويتقدمون أمامه.. ثم يتأخر من خلفه بعضهم كأنهم حرّاس لقائد فاتح.. أو حاكم له أهميته !!

وتعتلي الأم «المنصة» يصحبنها الخالات والعمَّات لإيقاظ العروس النائمة.. يرششن على وجهها قليلًا من الماء لتصحو من نومها .

– قومي.. اصحي يا مريم.. لقد جاء العريس.. لا تفضحينا.. كوني شاطرة كما نعرفك .

أرغموها على الجلوس بمشقة.. صحت.. وجلست كما أمرتها أمها وخالاتها وعمَّاتها.. كانت رقبتها تتلوى.. لم تهنأ بنومها.. في هذا الوقت تذكرت كثيراً من التعليمات والتوجيهات التي سبق أن سمعتها من أمها في بداية الحفل.. وقد ساعدت أصوات «الشحات» على إيقاظها فوضعت أصبعيها في أذنيها.. ثم أنزلتهما بطلب من أمها رغم أنها تخاف هذه الأصنوات مثلها مثل بعض الصغيرات في سنها .

دخل العريس ابن الأربعين في زهو وابتسام محاولًا أن يبدو أصغر من عمره وحين اقترب من العروس وضع يده على رأسها قارئاً سورة «الفاتحة» وما فتح الله عليه من دعاء في تلك اللحظة.. ثم خرج من الحفل مع أقربائه .

– أما وقاحة.. ألهذا الحد وصلت بالرجل قلة الحياء !!

● هل النساء من الندرة بحيث لم يجد إلا هذه الطفلة الصغيرة ؟

– ألهذا الحد بلغت الأنانية بالرجال.. هل يتصورون أن بنات الناس لعبة أو «شخشيخة» في حياتهم ؟

● ما أتفهه !!

– ما أشقاها المسكينة.. كيف تستطيع أن تعيش مع رجل في سن أبيها ؟

● كيف ستدبّر شؤون المنزل طفلة كهذه ؟

– كيف وافق أهلها على هذا الزواج المبكِّر رغم أنها وحيدتهم.. والبقية من أخوانها من الأولاد ؟

● هل أغراهم بالمادة ؟

– وهل تفعل المادة كل هذا ؟

– إنها ضحية.. لقد باعوها بثمن بخس !!

– بل.. لقد ذبحوها.. حرموها متعة الطفولة !!

● قاتل الله الفلوس.. وما تعمله في نفوس الناس !!

– ولكن أباها غني وليس في حاجة إلى فلوس !!

● يقولون إن أباها زوجها منه تكريماً له لأنه شريكه في تجارته !!

أسئلة.. وتعليقات من هنا وهناك ردَّدتها ألسنة الحاضرات بعد رؤيتهنّ العريس.. وفارق السن الكبير بين عمرها وعمره.. وصغر سنها عن موعد الزواج الناضج السليم .

الامتعاض كان يبدو على وجوه النساء اللاتي حضرن الحفل..

ضاقت نفوسهن.. حملن عباءاتهنّ.. وخرجن من الحفل .

- ما أتفه الإنسان وأحقره في بعض الأحيان.. يصنع المأساة بنفسه ثم يشكو ويتعس متناسياً أنه الذي صنع مأساته بنفسه.. يتصور أن حبلًا يخنقه رغم أنه هو الذي لف هذا الحبل على رقبته .

تعليق قالته إحدى النساء وهي في طريقها للخروج من الحفل والعودة إلى منزلها .

تؤخذ العروس الصغيرة إلى منزل الزوجية يصحبنها أمها وخالاتها وعمّاتها.. وحين وصلت المسكينة إلى المنزل ألقت بنفسها على أحد السرر واستغرقت في نوم عميق.. نام في السرر الأخرى بجوارها مرافقاتها حتى طلع الصباح.. فقامت الأم بإعداد طعام الفطور.. ثم طعام الغذاء وطعام العشاء .

مرت ثلاثة أيام على هذه الحال.. العريس ينام وحيداً.. وتنام العروس مع أمها وخالاتها وعمّاتها.. حاولن خلال هذه الأيام أن يشرحن لها معنى الزواج.. وماهيته.. ودورها نحو عريسها وأهله.. وأقنعنها بذلك بعد أن أفهمنها أنهن سيعدن إلى منازلهن.. فوافقت الصغيرة على كل ما سمعته دون أن تعرف نتائجه.. وشعورها القادم.. ثم ودّعنها وذهبن إلى منازلهنّ بعد أن تأكدوا من أن أم العريس سوف تكون لها كأم في حياتها وتوجيهها وتعليمها شؤون وأعباء منزل الزوجية .

وبعد أن وصلت الأم إلى منزلها بساعات كانت تروي خلالها

لزوجها وضع ابنته وتطمئنه.. فشعر بالارتياح خاصة ما قالته له زوجته عن أم العريس.. وأنها طيبة.. وأنها ستكون كالأم لها .

فجأة شعر الوالدان أن «مريم» قد عادت إلى المنزل باكية مستنجدة.. وقد امتقع لونها.. كانت تلهث.. قطعت المسافة إلى منزلهم غير البعيد كثيراً عن منزل الزوجية ركضاً على قدميها !!

رمت بنفسها باكية في حضن والديها.. قالت في حشرجة جارحة :

– خذني يا أبي.. وأنت يا أمي.. أنا لا أريد مفارقتكما.. لماذا أخرجتماني من منزلنا.. لم أفعل شيئاً يسيء إليكما.. إنني أحبكما وأحب بيتنا.. أود أن أرجع إليه لألعب مع أخواني في الحديقة.. أسقي العصافير.. أنا لا أريد أحداً غيركما .

طمأنها والداها.. خففا من روعها.. أخذتها أمها إلى غرفتها.. سمع الأب طرقاً على الباب.. حين فتحه وجد أمامه العريس فدعاه إلى المجلس.. وتحدثا بشأن العروس.. فأصر الأب على بقائها حتى تبلغ سن الزواج.. وقال له :

– من ساعة إلى ساعة فرج.. وأرجو أن يكون حل الموضوع في صالح الطرفين .

الزوج لم يوافق على كلام الأب.. أصرَّ على أخذ عروسه.. وإذا لم يأخذها فسوف يذهب إلى المحكمة لإقامة دعوى على الأب .

استشاط الأب غيظاً.. لم يكن يتوقع أن يقف صديقه وشريك تجارته هذا الموقف فرد عليه :

- إذهب إلى حيث تشاء.. وافعل ما تريد لأنك لن تأخذ البنت !!

ثم هدده بفسخ عقد الزواج !

في المقابل كان العريس المتصابي متشدداً.. فرد عليه بحدة :

- من الآن اعتبر أننا لسنا شركاء في التجارة.. وسنصفي كل شيء فيما بيننا.. أما حقي الشرعي في الزواج فلن أتنازل عنه.. وغداً موعدنا في المحكمة !!

نزل كلام العريس على الأب كالصاعقة المباغتة غير المتوقعة.. رد عليه بالحدة نفسها وهو المعروف بجديته ورصانته واحترام الآخرين له.. اعتبر تهديد صديقه العريس تحدياً له ولإرادته رغم تلطفه معه في بداية الحديث.. قال له :

- إذهب إلى حيث تشاء.. لتذهب إلى الجحيم.. لن تخرج ابنتي من المنزل.. لن ترى وجهك الكريه.. لقد تكشفت لي الآن بأنك لست صديقاً.. وانك ترتدي ثوب الإنسان على جسم ذئب ماكر مخادع !!

ثم اتجه الأب إلى الباب.. فتحه ودعاه إلى الخروج.. أشعره أنه لا يستحق حفاوة الأصدقاء.. وأنه لا يبالي بما سيفعل.. ولتذهب الشركة في التجارة في ستين داهية !!

– أتطردني ؟ سأل الصديق العريس

● هذا أقل ما تستاهله.. وأبسط رد على وقاحتك وصلفك.. رد عليه الأب.. خرج العريس مغتاظاً يتمتم بعبارات التهديد والوعيد.. صفق الأب الباب من ورائه بعنف يجسد ما تجيش به نفسه .

في الصباح كان الاثنان في المحكمة.. أصدر القاضي حكمه بعد سماع كلام الطرفين بفسخ عقد الزواج.. وإعادة ما خسره العريس من تكاليف الزواج إليه .

بعد ذلك خرج الطرفان.. لم يسيرا في طريق واحد.. لم يكلم أحدهما الآخر.. ذهب كل واحد منهما في طريق .

(*) نشرت هذه القصة في مجلة «اليمامة» الأسبوعية الصادرة بالرياض.. العدد (١٣٢).في ١٣٨٦/٨/٢٦هـ .

(١) الشحَّات : تسمى في الحجاز الطراطيع.. وهي عبارة عن شدة تحتوي على مجموعة حبات مثل أصابع اليد.. وفي نهايتها فتيل إذا لامس النار اشتعل كاملًا.. وحين يصل إلى شبيه الأصبع المعبأ بكمية بسيطة من البارود ينفجر فيصدر صوتاً.. ولكثرتها تشعر أن معركة حربية قامت.. وهي تعبير عن حالة الفرح.. وتمسك باليد لعدم خطورتها .

(٢) المقيِّنة : امرأة تقوم بنقش يدي وقدمي العروس بالحناء .

(٣) المعضيَّة : المرأة التي تضع الأشجار ذات الرائحة العطرة على رأس العروس.. وبلفه مع شعرها وتتقن ربطها حتى لا تسقط هذه الأشجار المتعددة ويسمى مايوضع على شعر العروس «العَكرة» .



وَعَاشَ مَعَ الحِرْمَان (*)



طرقات خفيفة سمعها على الباب.. سار متثاقلًا كرجل حمَّلته الهموم والأحداث أكثر من طاقته فبدا شاحب الوجه .

فتح الباب.. وجد شخصاً مهيب القامة يمد يده ليسلمه شيئاً.. لا يعرف ما هو.. ورقة.. بطاقة.. خطاب.. المهم أنه تناول هذا الشيء.. عاد إلى غرفته وصوت الباب يصفق من ورائه.. جلس على سريره.. شرع في القراءة.. هي بطاقة دعوة لحضور حفل زواج أحد أصدقائه..

● تلقى الكثير من هذه البطاقات التي اعتاد الناس توزيعها لدعوة المعارف والأصدقاء لحضور حفلات الزواج.. والمشاركة في أفراحهم .

كان يتلقاها ويذهب ليشارك الأصدقاء أفراحهم.. يمرح.. ويضحك.. يتحرك هنا وهناك.. يروح ويجيء.. يوزع الابتسامات على الجميع كأنه في يوم عيد.. أو كأنَّ هذا الحفل قد أقيم بمناسبة زواجه.. يضيء الأتاريك.. يعد مجامر البخور.. يوزع الحلوى.. شعور غريب

يعتريه في هذه اللحظة لم يتخلص منه رغم أنه يضايقه.. إنه دور الممثل البائس الذي يؤدي دوره في براعة وإتقان.. يقف على خشبة المسرح ليضحك الناس وفي أعماقه شلالات من الحزن والحرمان.. يسلي الناس وهو يتألم، يقول النكتة لتتعالى جوانب المسرح بالضحكات المعربدة.. والصراخ المحموم بينما تصرخ بين جنباته أنات الحزن.. والحرمان.. يجسدهما واقعه البائس الذي يعيش فيه .

منزل بسيط مؤلف من غرفتين إحداهما خالية من كل شيء إلا من الصدى.. والبقايا.. والأطلال..

والأخرى تحتضن هيكله المليء بكتل من الشعور الغريب الذي ينتابه من وقت لآخر.. وعقله الذي يضيق بما يتحرك داخله من أفكار تتلاحق وتتزاحم نتيجة للمؤثرات الخارجية .

وماذا في الخارج خارج نفسه.؟ إن في الخارج ما يؤرقه مفارقات عجيبة.. وتناقضات غريبة.. وأشياء لا تريح النفس بقدر ما تتعبها، تجهدها فتجعله نهباً للألم والحزن والحرمان .

كان يجد راحة نفسية عندما يخلو لنفسه في غرفته.. حيث يكون بعيداً عن الناس.. ومظاهرهم الزائفة.. بعيداً عن عالم النفاق الاجتماعي، والزيف.. والملق.. بعيداً عن اللهاث وراء المادة .

لكنه كان يشعر بسعادة غامرة في خدمة الآخرين.. فإذا كتب له أن يعيش محروماً من السعادة فأقل ما يمكن أن يساعد في إيجادها للآخرين .

أما هو فليس له إلا أن يعيش مع الأطلال.. والحسرة.. أطلال أمه الحبيبة.. أمه التي كانت له كل شيء في هذه الدنيا القاسية.. والتي كانت له نوراً في ظلام الوحشة.. وصوتاً جميلًا يردد أنشودة الأمل عندما يشتد به اليأس.. وشجرة يستظل بفيئها عندما يشتد القيظ.. وواحة ينهل منها عندما يغلبه العطش .

لقد كانت له كل شيء.. ماتت وتركته كريشة في مهب الريح.. تركته كومة من الألم.. وعجينة من السقام.. ماتت وبموتها فقد البقية الباقية له مما اصطلح عليه الآخرون على أنه سعادة.. ماتت قبل أن يتحقق حلمها لتراه رجلًا تشير إليه الأصابع.. وتتحدث عنه المجالس.. رجلًا له جلاله ومكانته في مجتمعه .

وتمر الأيام.. كما تمر الشهور.. والسنون وصاحبنا يفقد الكثير من الأشياء الحبيبة إلى نفسه.. فقدها ليعيش مع أطلال أم رؤوم.. وبقايا ذكريات حنان..

كان عليه أن يبحث عن سلوى تنسيه واقعه المر.. تنعش وجوده .

وجد نفسه تنجرف دون سابق إنذار في مجاهل.. ومتاهات.. وأغوار عميقة.. متاهات النفس.. ومجاهل الكون.. النفس بأسرارها ومكنوناتها.. والكون ببدائعه وعجائبه وغرائبه ، وجد نفسه تجري وراء الكلمة تقرأها.. تفسر خباياها..

ساح في عالم غريب.. عالم مليء بالكثير مما في الحياة.. عالم الكتب.. لقد كانت القراءة هي النافذة التي يطل منها على العالم الذي حوله .

إن دنيا الكتب حافلة، زاخرة تشبع الروح.. وتمتع النفس.. هي دنيا متعبة لكنها لذيذة.. كانت الكتب خير أصدقاء له.. تستقبله في كل وقت بصدور رحبة.. تواسيه وتعزيه في أي فقد.. وعن طريقها اكتشف الكثير وتعرَّف على الأكثر .

يعيش بين أكداسها المتناثرة هنا.. وهناك دون ترتيب، في فوضوية غريبة فوق السرير.. وعلى الرفوف.. على الطاولة.. في الزوايا وقد تدثر بعضها بطبقة من الغبار .

عاش مع الفلسفة والحكمة على ضوء سراجه المتراقص.. ومع الفن والأدب مع نسمات فجر ضاحك.. وقمر متوحد .

علمته حياته الجديدة مع الزمن، والناس.. والحرمان كثيراً من الأشياء !!

حياة الخريف التي يحياها جعلته يرسم لوحة الفجر الضاحك.. والبسمة الحالمة.

عيشة الحرمان دفعته لتخيل كثير من الصور الكاذبة.. أصبح يملك القدرة على مغالطة نفسه بفن جذَّاب.. وما أكثر الناس الذين يعيشون هذه المغالطة.. وهذا الوهم - بل كل الناس - ولولاها لضاقت الحياة بالناس.. وتحطمت سفنها أمام لطمات الأمواج القوية .

والناس مساكين.. يظن الكثير منهم أنه أحق بملك الخافقين.. والسمو فوق مناط الفرقدين ولو راجعوا حساب أنفسهم لوجدوا أنهم يعيشون الوهم الكبير .

يصحو صاحبنا من سرحانه ليجد أن البطاقة التي تسلمها قد سقطت من يده فينحني ليلتقطها ويعيد قراءتها مرة أخرى !!

إذن، فقد تحقق لصديقه (علي) حلمه ولقي شريكة حياته الحلوة.. فليهنأ.. وليستقر بعد المشوار الطويل .

أما صاحبنا فعليه أن ينهض الآن إلى مكان الحفل ليشارك صديقه فرحته الكبيرة.. يضيء الأتاريك.. ويحرق البخور.. وينثر الزهور.. يوزع الحلوى على الضيوف.. كما يوزع الابتسامات على الجميع كأنه في يوم عيد.. ثم يعود إلى منزله متهالكاً جريح القلب.. محطَّم النفس.. يعود لقنديله المتراقص.. وكتبه مع البقايا والأطلال.. يعود ليعيش مع الحرمان وهو في عنفوان الربيع.. وريعان الصبا والشباب .

(*) نشرت في جريدة «المدينة المنورة» اليومية التي تصدر بجدة – العدد (٧٢٤) في ١٨/٤/١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٦م .





في أجــازة (*)



صفق الباب خلفه بعنف.. وبراكين من الغضب تغلي في أعماقه.. سار في الشارع لا يلوي على شيء !!

لم يكن يرى شيئاً.. أو يسمع شيئاً سوى أصوات أطفاله تشيعه فتملأ نفسه بالغضب، وأذنيه بالرماد !!

ومن ورائه شعر بحجارة حمقاء.. كانت شتائم زوجه تلاحقه فتسد أمامه رؤية الطريق.. لم يكن يرى شيئاً.. أو يسمع شيئاً !!

سار في شارع ضيق من شوارع حارته في **مدينة «جدة»** العتيقة.. كان كالهارب من كل شيء.. بينما أصوات أطفاله وقذائف زوجته مازالت تلاحقه تصم أذنيه.. تطارده كمجرم خطير فرَّ من سجنه.. أحس به السجَّان فأطلق صفارته طلباً للنجدة لإعادته إلى سجنه !!

أسرع في خطاه.. ومع كل خطوة يتمتم بعبارات التذمر القاسية على التجديد.. والتطوير.. والإجازات !!

ترك الشارع الضيق ليدلف إلى شارع آخر أكثر اتساعاً من صدره الذي كان يضج بالغضب !!

فجأة سمع صوتاً يناديه :

- **عم حامد.. عم حامد !!**

الطريق أمامه بحر من الضباب.. هكذا كان يشعر.. والدنيا حوله تطارده.. والحجارة تقع على رأسه وجسمه، وأحياناً تخطئه.. لكنه لم يتوقف.. كان يسير دون أن يبالي بشيء !!

الصوت ما زال يلح في النداء.. يدعوه باسمه المحبَّب الذي عرف به بين من يحبونه «**عم حامد**» !!

كيف يتجاهل صاحب النداء.. وهو الذي عُرف بالطيبة وحب الناس !!

كانت رطوبة مدينة «جدة» تشعره برعشة خفيفة في جسمه.. بدأ غضبه يهدأ.. شعر أن صاحب الصوت يدعوه بلطف.. ومن العيب، بل من العار أن يتجاهله .

نظر خلفه فرأى شخصاً يلوِّح له بيده.. يدعوه للمجيء.. لكن «عم حامد» وهو ابن الخمسين الذي عرف بضعف نظره لم يره بوضوح.. رفع يده على جبهته ليحجب نور الشمس الذي يضع بينه وبين الأشياء البعيدة حاجزاً لا يساعده على الرؤية الجيدة.. فبدت على وجهه المتغضن ما فعلته به الأيام والحياة !!

تلك الأيام التي احترقت من عمره كالسجائر دون أي مردود سوى التعب والنكد من أجل لقمة العيش، وتربية أطفاله، والحرص على أن يكون مستور الحال!!

تحولت السنون الخوالي إلى أعقاب ملقاة على قارعة الطريق، كأعقاب السجائر.. تدوسها أقدام البشر والحيوانات.. دون أن تعيرها أي اهتمام !!

شعر بالحزن يقتات نفسه وهو يصل إلى هذه النتيجة المرَّة.. ومع ذلك غالب شعوره.. وسار صوب الصوت الذي يناديه.. عرف أنه صديقه «**عثمان**» الذي كان يقتعد «**مركازاً**» في مقهى الحارة !!

نعم، «عثمان» صديقه الرجل الطيِّب الذي كان كثيراً ما يساعده في توزيع رسائل البريد التي كان يلف بها على الناس والمنازل، والشركات البسيطة المحدودة في مدينة «جدة».. وبخاصة حين يشتد به المرض !!

حيَّاه بحرارة.. ثم دعاه للجلوس وهو يصيح بصبي المقهى بأن يحضر كرسياً للعم «حامد».. سأله :

– ماذا تشرب يا عم حامد.. وإلى أين أنت ذاهب ؟

لم يجب على شق السؤال الأول.. لكنه أجاب على الشق الثاني قائلًا :

● إلى الجحيم !!

– ماذا تقول ؟. سأله صديقه «عثمان» وعلامات الدهشة والاستغراب ترسم على وجهه خارطة قديمة فقدت ملامحها، واختلطت حدودها !!

• قلت إلى الجحيم.. يعني إلى الجحيم.. إلى ستين داهية.. ألا تسمع ؟

نطق «**العم حامد**» هذه العبارة بحرقة، وبأسلوب غير مألوف عنه.. دفن وجهه بين كفيه كمن لا يريد رؤية أي شيء !!

– **لا.. لا.. هذه ما هي «عوايدك» يا عم حامد.. فأنا لم أعهدك على هذه الحال !!**

قال صديقه «عثمان» ليهدىء من روعه .

• وماذا تريدني أن أقول لك.. هذا هو واقعي.. لقد تغيَّر حالي.. ضاقت بي الدنيا.. كرهت حياتي.. لم يعد لي فيها مكاناً !!

– **لماذا كل هذا التشاؤم.. الدنيا ما زالت طيبة.. والناس كلهم يحبونك.. اخبرني ماذا حصل، لأنني أكاد أجن مما أسمعه منك ؟**

• الحكاية طويلة.. لا أعرف بدايتها من نهايتها !!

– **لا عليك، حدثني.. «فضفض» مافي نفسك.. في الكلام راحة في بعض الأحيان .**

قالها صديقه «عثمان».. ثم رفع صوته منادياً صبي المقهى ليحضر لعم حامد قارورة «**بيبسي**».. فردد الصبي من بعده الطلب.. ثم جاء مسرعاً ووضعها على الطاولة بعد أن فتح غطاءها .

• تفضل يا عم حامد.. قالها صبي المقهى بصوته المرتفع.. ثم اتجه إلى «مركاز» آخر ليلبي طلب زبون جديد .

– **هيا اشرب يا عم حامد.. «روِّقها» الدنيا ما تسوى.. هدىء من غضبك.. وأخبرني عما يضايقك ؟**

مد «العم حامد» يده.. ورفع القارورة إلى فمه بعد أن رمى غطاءها.. شرب نصفها دفعة واحدة.. ثم أعادها إلى مكانها.. تجشأ بعدها بصوت مرتفع.. ثم حرَّك لسانه يتذوق بقايا طعم المشروب.. صمت فترة.. ثم رفع رأسه.. أداره يمنة ويسرة على الجالسين في المقهى كمن يخشى أن يسمعه أحد.. ثم قال :

● اسمع يا عثمان.. أنت تعرف مدى تعلقي وحبي لمنزلي وعائلتي وعملي.. تعرف أنني قانع بحياتي البسيطة.. ووظيفتي في «**البريد**» موزعاً للرسائل.. هي حياة عادية، لكنني كنت أشعر بالاستقرار والهدوء رغم أنها تسير يومياً على وتيرة واحدة.. والحال مستور كما يقولون !!

- **أعرف ذلك.. أعرف**.. قالها صديقه «عثمان».. **ولكن ماذا حدث حتى جعلك كما أراك على غير عادتك ؟**

● لا تتعجل.. سأقول لك كل شيء.. فأنت صديق عمر.. وزميل عمل.. والإنسان يرتاح لك.. وللحديث معك.. لأنك ابن حلال !!

- **هذا صحيح.. والدنيا مازالت بخير.. وفيها كثير من الناس الطيبين !!**

● أعرف ذلك.. ولكن لا تتعجل فسأحدثك عن كل شيء.. أنت تعرف أن مدينة «جدة» قد اتسعت.. ما عادت كما كانت.. تطوَّر كل شيء فيها.. مبانيها.. تجارتها.. حركة أسواقها.. والناس من كل بلد !!

توقف العم «حامد» عن مواصلة حديثه.. ومد يده ليشرب البقية

الباقية من القارورة.. عاد إلى التجشؤ من جديد بصوت مرتفع.. ثم أخرج لسانه ليتذوق ما بقي من الشراب على شفتيه الجافتين.. رفع لسانه إلى اللثة زيادة في الاستمتاع بالتذوق.. أصدر صوتاً نتيجة هذا التصرف.. ثم عاود الحديث :

● كنا أيام زمان نعمل طوال أيام الأسبوع.. لا نظام.. ولا «كادر» أو تصنيف للعمل والوظائف.. ولا مراقب.. والأهم من هذا لا إجازات طويلة.. كانت أيام حلوة لا تعقيد فيها.. كل أيامنا عمل.. هل تذكر حين كنا نجلس على سطوح مبنى البريد نتبادل أطراف الحديث.. نسترجع ما حصل في يومنا أثناء توزيع الرسائل.. كانت لنا أوقات نجتمع فيها.. وأوقات نتفرغ فيها لقضاء حاجات البيت من اللحم والفول والسمك و«التميز» .

- **أعرف ذلك**.. رد عليه صديقه «عثمان» .

● كنا نسمي «**جدة**» (**أم الرَّخا والشِّدَّة**).. كنتُ مرتاح البال.. قانعاً بحياتي بصورة عامة سواء في المنزل مع الأولاد والعائلة.. أو في العمل مع الزملاء.. كنت أشعر أثناء قيامي بتوزيع الرسائل انني أقوم بمهمة إنسانية.. كان الجميع ينتظرون قدومي بلهفة.. ينادونني «**عم حامد**».. يسألونني : **أين الرسائل ؟**

كنت أشعر بالسعادة حين يتسلم أحدهم رسالته فيجد فيها ما يسره.. أو ترتفع المنازل بالزغاريد حين تحمل الرسالة خبر قرب مقدم عزيز عليهم.. ولا أنسى تعاستي وحزني الكبيرين حين تكون

الرسالة مصدراً لخبر مؤسف حزين.. كنت أشعر بالحزن مشاركة مني لأصحابها .

كل هذا كان يحصل.. لكنني كنت أعود إلى منزلي في غاية الشوق.. يستقبلني الأولاد وأم العيال ليحملوا عني ما أحضرت لهم .

ويصمت «العم حامد» لأنه أحس أن الفتور يدب في جسمه..

تساءل في نفسه : **هل هو مريض.. هل أصابه مكروه ؟**

لكنه تحامل على نفسه، لأنه لايريد أن يبدو ضعيفاً أمام صديقه «عثمان».. وطال الصمت.. فقال له صديقه :

– **هل أطلب لك قارورة أخرى، أو براد شاي أبو أربعة «منعنش» ؟**

● لا.. لا.. قالها «العم حامد» كمن أفاق من غيبوبة !!

– **إذن ماذا حدث ؟** سأله صديقه .

● أراك تستعجلني الحديث.. هل أنت على موعد.. أم أن حديثي أصبح يضايقك ؟

– **استغفر الله يا عم حامد.. وهل يمل أحد من أحاديثك.. تكلم لا عليك !!**

● سامحني أيها الصديق فأنا في حالة كرب وضيق !!

– **لا عليك تحدث كما تريد !!**

● قل لي إلى أية نقطة وصلت في حديثي ؟

عقدت الدهشة الصديق «عثمان» لسؤال «العم حامد» لأنه لم

يعرفه على هذا الحال.. ما أكثر ما كان يحدثه عن حكايات أيام زمان.. وحلاوة أيام زمان.. وطيبة ناس أيام زمان.. كأنَّ الدنيا كلها اختصرت حلاوتها وطيبة الناس في أيام زمان .

كان «العم حامد» يتحدث عن أيام زمان كما يتحدث عن شيء غال ثمين.. كان في الماضي يتحدث بأسلوب متسلسل.. فيه شيء من الخيال، وكثير من الواقع.. لكنه لم يكن يتوقف أثناء حديثه، أو يسرح !!

(ترى ما الذي غيَّره.. لابد أن حدثاً جسيماً قد حصل في حياته فحوَّلها إلى جحيم ؟)

سؤال قاله الصديق «عثمان» لنفسه.. حرص ألا يسمعه «العم حامد» .

– **لا بد أن أمراً خطيراً قد حدث لك يا «عم حامد»** ؟ سأل الصديق بصوت مرتفع ليجره إلى الحديث مرة أخرى !!

● ها.. أنا لم أسرح.. لكنني أتذكر – فقط أتذكر – النقطة التي وصلت عندها في الحديث.. يبدو أنني كبرت بسرعة.. الهموم يا عمي «تجيب» الشيخوخة المبكرة !!

– **بالعكس، يا عم حامد.. أنت ما زلت قوياً.. وعمرك طويل إن شاء الله.. ربنا يخليك لأولادك وعائلتك !!**

● هذا لا يمنع من أن تذكِّرني !!

- لقد كنت تتحدث عن حياتك أيام زمان.. وحلاوة أيام زمان.. وطيبة أهل زمان !!

● نعم.. نعم.. لقد افتكرت.. قلت ذلك.. ثم **جاء النظام**.. هذا الذي يسمونه «**نظام الموظفين**».. وجاء ما يسمى بـ «**الإجازة**» **الأسبوعية.. والإجازة العادية السنوية**.. كان حديث كل الموظفين في البريد عن النظام، وعن الإجازة، **والعلاوات والترقية**.. لاحظت تغيب بعض الموظفين.. وعندما أسأل عن أحدهم أُجاب بأنهم «**في إجازة**» .

ثم توقف «العم حامد» عن الحديث، ومسح العرق المتصبب على جبهته.. ثم مسح يده بثوبه.. وعاود الحديث :

● أنت تذكر يا «عثمان» أنك كنت في إجازة أيضاً.. لم تعد منها إلا قبل أسبوعين ؟

- نعم، أذكر ذلك يا «عم حامد».. لقد قضيتها في «الدِّيرة» مع العائلة في الجنوب.. لقد كان الجنوب يعيش موسم الزراعة فاستمتعنا بأكل «الخضير» و«الشوِّيط» و«المسهَّى» .

● ما هذه الأشياء التي تتحدث عنها يا عثمان ؟

- هذه الأشياء عبارة عن أكلات مختلفة تصنع من حب الذرة.. والدخن.. وهي لا تكون إلا أيام الزراعة والحصاد بعد مطر الموسم.. أبشّرك الأرض كلها مزروعة.. والناس أصحاب

الزراعة «منعومين» وسعداء بحياتهم.. فلا ضجيج، ولا حر، ولا رطوبة ولا «لسلسة» مثل جدة .

● ايه.. ايه.. الأرض هي الحياة.. أما الوظيفة هذه الأيام تضيِّق الصدر!!

– لم تكمل حديثك يا «عم حامد».. ولم تقل لي أسباب غضبك وتبرمك من الحياة.. وأنت الذي تقبل على الحياة بنفس راضية مطمئنة، وتعيشها في راحة بال.. قل لي ماذا حدث لك حتى تغيَّرت نظرتك للحياة ؟

● آه.. إنها الإجازة (قالها العم حامد بحرقة وألم دفينين) ليتني لم أطلب إجازة.. لكنني لم أكن أعلم ما كانت تخبئه لي الأقدار.. لو كانت الإجازة رجلًا لقتلته.. باختصار طلبت إجازة عادية كغيري من الموظفين.. قلت أرتاح خلالها من المشاوير والتعب.. أنام كما أريد.. وأصحو وقتما أريد.. هذا ما كنت أسمعه من الموظفين .

– **ثم ماذا ؟** سأل الصديق عثمان ؟

● قضيت الأيام الأولى من الإجازة في نكد وصياح و «زيطة وزمبليطة» مع مشكلات الأطفال و «دوشتهم» حتى فاض بي الكيل.. أحسست انني لم أعد قادراً على احتمال كل ما كان يحدث في المنزل!!

عاد العم حامد لصمته من جديد كمن شعر أنه يكشف عيوب منزله.. وهذا أمر معيب !!

– وماذا عملت يا «عم حامد» أمام ما يحدث في المنزل ؟

● شوف.. يا عثمان.. أنت صديق عمر، والكلام الذي سأقوله لك «حطه في بير» لأنه سر لا يمكن أن أبوح به لأحد لولا ثقتي بك ؟

- ماذا حدث في الدنيا يا «عم حامد».. نحن طول عمرنا حبايب وأصدقاء.. وكل واحد منا يعرف أسرار الثاني.. وعمره ما حصل أن تحدث أحدنا للآخرين بأسرار الآخر.. عيب يا رجل «كلامك في بير» اطمئن.. عسى خير إن شاء الله ؟

● أم الأطفال ؟

- ماذا بها.. ياعم حامد.. هل أصابها مكروه لا سمح الله ؟

● لا تخف.. إنها مثل الحصان.. مثل القطة أم سبعة أرواح كما يقولون !!

- طمَّنتني يا رجل !!

● قلت.. أم الأطفال تلك المرأة الصبورة التي لا تعرف الشتيمة لسانها.. لقد تغيَّرت.. أصبحت إنساناً آخر لا يطاق.. إنساناً لا أعرفه.. كان عليَّ لكي أوقف «زَفَرْ» لسانها، وتطاولها فضربتها «علقة» مكرهاً لأطرد روح الشيطان الذي تلبَّسها.. وغلى الدم في عروقي، وصرت كالمجنون فطلَّقتها.. نعم طلَّقتها !!

وبكى «العم حامد».. لكنه صمت بسرعة حين أدرك أنه في مقهى عام يغص بالناس ليواصل حديثه بتهدج وصوت خفيض :

● تصوَّر يا عثمان إنساناً يضرب أحب الناس إليه.. أم عياله.. ثم

يطلقها.. انني أشعر انني ارتكبت جريمة كبيرة لا مجرد حماقة.. فأظْلَمَ المنزل أمامي.. بل أصبح كل شيء أمامي ظلاماً في ظلام.. فتركته إلى الشارع.. ثم جئت إليك حين سمعت نداءك !!

وجهش «العم حامد» بالبكاء فمسك بيده صديقه «عثمان».. تركا المقهى.. لكن «العم حامد» انتفض فجأة كمن لدغته أفعى سامة، وسحب يده من يد صديقه قائلاً :

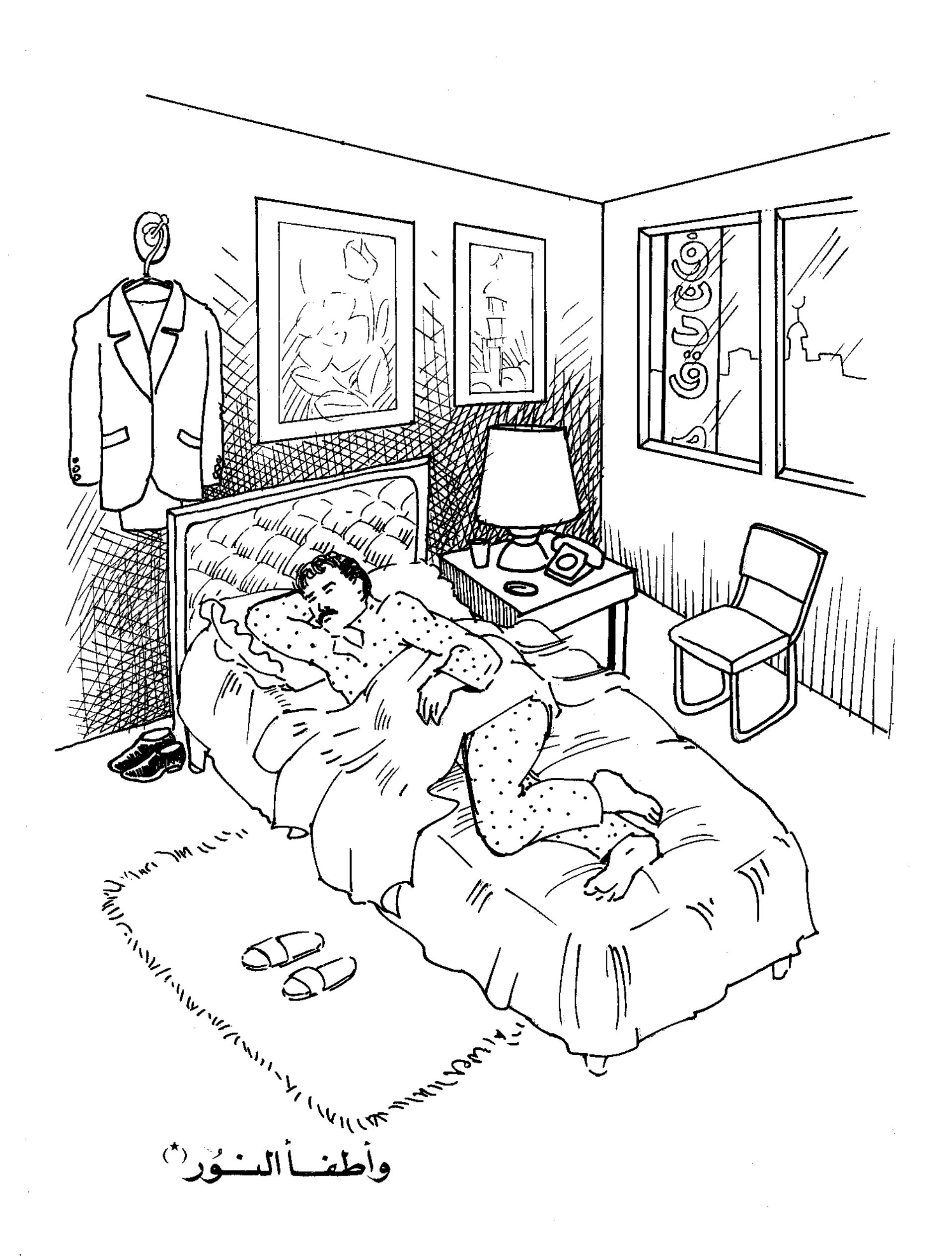
● دعني أذهب !!

– **إلى أين.. يا عم حامد ؟**

● كما قلت لك إلى الجحيم.. إلى جهنم الحمراء.. سأذهب إلى الإدارة.. فلولا الإجازة ما حصل ما رويته لك.. وبعدها يحلّها الحلّال !! قالها وهو يلعن اليوم الذي أخذ فيه إجازة !!

ابتلعت «أزقة» جدة «العم حامد» فغاب عن صديقه «عثمان» الذي عاد إلى المقهى مرة أخرى !!

(*) نشرت هذه القصة في جريدة «المدينة المنورة» التي تصدر يومياً في مدينة «جدة» وذلك في العدد (٩٨٠) بتاريخ ١٣٨٧/١٠/٢٥هـ الموافق ١٩٦٨/١/٢٥م .



وأطفأ النور(*)



أخذ مقعده في الحافلة المتجهة إلى **مدينة** «**ملقا**».. وروحه مشدودة إلى عيون «**غرناطة**» كان يحس أنها تلفه برموشها.. تجذبه بشعرها.. وأنها تبكي واحداً من فرسان تاريخها القديم.. وعاشقاً كان يدفىء ليالي شتائها.. يختال بقامته الممشوقة كقائد لم يعرف الهزيمة، وأغنية على شفاه العذارى، وحاملات سلال الورد يتمخطرن على صدر الربيع المزدان بالفرحة.. المأهول بالزحمة.. يقطفن وردة من هنا.. وأخرى من هناك .

– **لماذا تتركيني ؟**

لم يكن سؤالًا.. كان جيشاً قاهراً مزوداً بأسلحة لا يحسن استعمالها.. أحس بالهزيمة وهو القائد الذي لم يهزم .

نظر إلى يمينه.. ثم عاد ونظر إلى يساره كمن يبحث عن خلاص.. فجأة شعر أن الحافلة تغرق.. والمحطة تغرق.. والمدينة تغرق..

(هل فاض المحيط الأطلسي.. أم أن صراعاً يدور بينه وبين البحر المتوسط لاحتلاله ؟)

تظهر كعروس البحر في وسط الفيضان.. يأتيه الصوت قادماً من أعماق الأعماق.. من باطن الأرض الحبلى بالزرع.. من خلال سوق النخيل.. في تجاويف حبات التمر مغسولة برضاب الظباء.. تخطر على الشرفات المشرعة في مسام الشمس «**سندريلا**» تزف إلى فارس يعشق الترحال.. والتجوال..

موشح قديم يحلم بزمان وصل تدلت عناقيده .فوق نوافذ «**الحمراء**» **الحب.. والتاريخ.. والأدب.. والفن.. والخيل..**

- تذكرة ؟

وأفاق.. تفرَّق الجيش.. انحسر الفيضان.. عاد «المتوسط» إلى حيث كان.. وبقي «الأطلسي» في مكانه.. وظل وحيداً في مقعده تحوطه عيون الركاب..

أين غرناطة ؟

أين عيون غرناطة.. أين سلال الورد ؟

تحسَّس جسمه.. شَعْرَها من سرقه ؟

والرموش التي يسكن تحتها تاريخه هل أغرقها الفيضان ؟

- تذكرة ؟

اللعنة على التذكرة.. وعلى هوية التعريف.. وعلى الأسماء ؟

لماذا لا يختار الإنسان لنفسه الاسم الذي يريد ؟

- تذكرة ؟

مدّ يده إلى معطفه، وناول الرجل قطعة صغيرة من الورق.. نظر

إليها.. ثم رسم خطاً على أحد أرقامها.. وأعادها إليه .

تصفح قطعة الورق الصغيرة.. هذه أول مرة يدقق النظر في تذكرة.. لقد قطع عشرات التذاكر.. بالطائرات.. بالباخرات.. بالحافلات.. لكنه لم يفكِّر في يوم من الأيام بالاطلاع عليها .

(ترى لو لم يكن يحمل هذه القطعة الصغيرة ماذا يمكن أن يحدث ؟

هل ستعتبر جريمة يعاقب عليها القانون ؟

من سيمثل النيابة العامة ودور «المدَّعي».. ليقف هو موقف «المدَّعى عليه» خلف القضبان ؟

سجون.. ومدعي.. وجريمة.. ونيابة عامة ؟.

لماذا يُطَارَد الإنسان ؟

لماذا يكون مجرماً) ؟

نظر إلى الخارج فوجد أن السماء تساقط مطراً خفيفاً، سحب الزجاج لتهدهد وجهه نسمة محملة بالرذاذ.. شعر بالراحة.. تذكَّر طفولته يوم كان صغيراً يركض في حارات مدينته الصغيرة مع رفاقه.. وهم يتصايحون **«يا مطرة رخِّي.. رخِّي»** ..

ونزل المطر رخاء.. وتسللت إلى جسمه رعشة فانتفض كما «عصفور بلله القطر» فأغلق زجاج النافذة.. وتكوَّر داخل معطفه.. أشعل سيجارة بحثاً عن الدفء.. وعيناه تتلصصان خلف دخانها المتعانق داخل الحافلة.. سحب «نَفَساً» طويلًا من سيجارته.. عيناه

كانتا تتابعان رحلة الدخان المتصاعد من فمه .

إنه يخرج بكثافة.. ثم ينتشر.. ويتبدد.. ليختفي في النهاية !!

إنسان المدنية.. ومدنية الإنسان هكذا أيضاً..

فالمدنية تجمُّع.. وبناء يرتفع.. ويرتفع.. ثم لا يلبث أن يهوي.. ليحل محله بناء آخر.. والناس يتجمعون.. يلتقون.. ليتفرقوا.. ويأتي غيرهم ..

وعواطف الناس.. كسيجارته تبدأ ساخنة ملتهبة.. ثم تحترق.. وتدب فيها البرودة.. وأخيراً تموت تماماً كهذه السيجارة .

أطفأ سيجارته.. خدر خفيف كان يندس في أوردته.. وشرايينه.. تجوَّلت عيناه داخل الحافلة .

وجوه مختلفة.. جاءت بهمومها من كل مكان.. تبحث عن الراحة من خلال التعب .

وجهه في وجهها.. يده تمسح ظهر يدها.. يدها تعبث بخصلات الشعر الأشقر..

عاشقان ؟

العشق مرحلة من مراحل الاحتراق..

زوجان ؟

ربما كانا يقضيان معاً ما تعارف عليه الناس بشهر العسل ؟

شهر عسل ؟

لماذا شهر واحد فقط..

لماذا لايكون عاماً.. أو عمراً ؟

إذا كان عسل الزواج شهراً.. فهل يعني أن بقية الأشهر دبساً وقطراناً ؟

لن يتزوج إذا كان سيقضي عمره يحتسي «القطران» من أجل «عسل» شهر واحد !!

ماذا لو أصر الرجال على قرار كهذا ؟

هل ستقوم النساء بتظاهرة يكسرن الواجهات الزجاجية ويطالبن بسقوط القرار ؟

والنساء.. ماذا سيحدث لو اتخذن قراراً كهذا ؟

هل سيقوم الرجال بمداهمة الأماكن التي تتجمع فيها النساء.. ويجبروهن على التخلي عن هذا القرار الغاشم ؟

وعلى أي شكل ستكون عليه الحياة إذا ما اتخذ القرار من الجانبين ؟

(الأمر يبدو في غاية الصعوبة.. والغموض.. ولو لم يكن ذلك ما تحمل الطرفان عمراً من «القطران» من أجل شهر من «العسل») !!

لوى رقبته إلى الخلف فرأى أحد الركاب يحل مسابقة «الكلمات االمتقاطعة».. كانت هذه واحدة من هواياته قبل عشر سنوات.. لكنه تركها منذ أن بدأ فكره يشتغل بأشياء أكثر أهمية .

الكلمات المتقاطعة مشكلة إنسان في حاجة إلى إنسان يحلها .

إنه الإنسان.. يصنع المشكلة.. ثم يبحث عن حلها بواسطة الآخرين ؟

يدو أن الزواج أحد حلول مشكلات الحياة .

- هل معك كبريت ؟!

نظر إلى صاحب الصوت فإذا هو أحد زملاء الرحلة.. بلا مبالاة ناوله علبة الكبريت .

● احتفظ بها لديك !!

قالها كمن يحتج على تصرف ما.. كأنه يطلب إليه ألا يكرره .

(لماذا يشعر الإنسان أحياناً أنه في حاجة للعيش بعيداً عن الناس.. كل الناس.. في جزيرة نائية مثلًا) ؟

فجأة توقفت الحافلة.. فتح زجاج النافذة.. حاول قراءة «يافطة» المحطة.. كرمش وجهه.. وقرأ : «ملقا» .

هذا هو يصل مدينة «ملقا».. كانت تحتفل بعيد رأس السنة..

كل المنازل أفرغت سكانها.. ألقت بهم في الشوارع.. شبان.. وشابات في أزياء تنكرية.. يرقصون.. يصرخون.. يصفقون.. يداعبون المارة..

هذا شكله كالقرد.. وأخرى كالذئب..

(مأساة أن تتحول المرأة في «عيد» إلى ذئب.. والرجل إلى «قرد».. مأساة) ؟

قالها مستسخفاً نفسه.. فهو مازال إنساناً متخلفاً.. في الفرح

تحدث كل الأشياء.. وتتساوى.. تماماً كما تتساوى النساء والقطط في الظلام .

وضع حقيبته أمام صاحب الفندق.. سلَّمه جوازه.. عبَّأ بطاقة.. الاسم.. الوظيفة.. العنوان.. القصد من الرحلة .

عبارات ملَّها.. أصبحت سامجة لكثرة ما رددها.. وكتبها في الفنادق.. والمطارات !!

الرقم (١٢١) . حمل المفتاح.. وصعد إلى الغرفة (١٢١) .. ثم رمى حقيبته جانباً.. فعاد وأخذها.. أخرج «بيجامته».. خلع ملابسه.. ارتدى «البيجامة»..

ترك كل شيء.. وتأكد من أن الغرفة مقفلة.. ثم ألقى بنفسه على السرير.. **وأطفأ النور !!**

(*) نشرت هذه القصة بمجلة «الفيصل» الثقافية الشهرية التي تصدر من «دار الفيصل الثقافية» بالرياض العدد (٤٩) - رجب ١٤٠١هـ السنة الخامسة - ايار (مايو) ١٩٨١م .





الحصار(*)



-الرياض.. لم تعد الرياض.. أصبحتُ فيها واحداً من الغرباء!!.

عبارة أطلقها وهو يبحث عن مخرج من هذه الجسور كأنها الكوابيس، أو ظهر «**أحدب نوتردام**».. وهذه الشوارع المغلقة في وجهه.. شعر باختناق.. فتح نافذة سيارته.. تسلَّل الغبار إلى الداخل.. تحوَّل وجهه إلى زوبعة.. سارع بسحب الورق «المستورد» ليمسح وجهه الزوبعة.. شعر أن عينيه تختنقان.. ورأسه تحوَّل إلى زوبعة من الأسئلة الخانقة!!.

أوقف سيارته بجوار الرصيف.. كان الناس يمرون به دون مبالاة.. تساءل :

- أين سكان الرياض الطيبون.. أولئك الذين عرفهم حين كان لا يمر أحدهم بجوار الآخر دون أن يقرأه السلام ؟.

أوقف أحد المارة.. سأله :

- إلى أين يؤدي هذا الشارع ؟.

رد عليه بلغة لم يفهمها.. كرَّر السؤال مرة أخرى.. جاءه الرد بلغة أغرب.. ثم تركه وذهب .

أوقف آخر.. قال في نفسه : **لعله من سكان هذا الحي**.. حين سأله رماه بنظرة استنكار وأدار له ظهره !!.

– **ماذا حدث للناس؟ يبدو أنني أضعت كل الطرق.. أو أنني في مدينة غير مدينة الرياض التي أعرفها !!.**

نزل من سيارته.. وقف على الرصيف.. عيناه معلقتان في كل الجهات تبحثان عن بعض معالم الرياض القديمة التي يعرفها.. رأى شخصاً بملابسه العربية.. صاح به :

– **إلى أين يؤدي هذا الشارع ؟.**

● بردون !!.

– **إنه يرطن.. ومع ذلك يرتدي الزي العربي.. حسناً سأكرر السؤال في صيغة أخرى .**

– أين شارع الوزير ؟.

● نو أرابيك.. نو أرابيك .

– **نو أرابيك.. وملابس عربية.. وفي مدينة الرياض؟.. يبدو أن الرياض قد تركت موقعها التاريخي لمدينة جديدة.. أو أن أهلها كلهم ذهبوا إلى البرَّ !!.**

هذه المرة هو الذي أشاح بوجهه دون أن يشكر «نو أرابيك» صاحب اللباس العربي.. مع أنه يعرف أن كلمة الشكر في مثل هذا الموقف مظهر حضاري.. لكنه عربي متعصب للغته العربية خاصة حين يكون في وطنه أو في أي قطر عربي.. إنها هويته.. كيف يتخلّى

عن هويته في الوقت الذي يجد تعصباً حين يُسافر إلى أي قطر غير عربي.. إنهم هناك لا يتحدثون إلا بلغاتهم حتى العرب أنفسهم يتحدثون في الخارج بغير العربية.. بالأمس تناول طعامه في أحد فنادق الرياض.. لاحظ أن الغالبية عرباً وغير عرب يتحدثون بغير العربية.. حين انتهى من طعامه قُدمت له «فاتورة» الحساب بغير العربية.. تذكَّر أنه قد تلقى عدة رسائل من شركات وفنادق سعودية بلغة غير عربية !!.

شعر بالاختناق.. ودَّ لو صرخ بأعلى صوته العربي!!

حك رقبته وأصلح غترته وعقاله.. ثم سار على قدميه عدة أمتار.. أراد أن يسلِّي نفسه ليخرجها من الاختناق.. أخذ يتصفح يافطات المحلات التجارية والمطاعم.. كانت إحدى هواياته حين كان يروق له أن يسير في شوارع المدينة.. كل شيء قد تغيَّر.. حتى الأسماء العربية بدأت تختفي.. إنه يسمع ويلاحظ أحياناً من الأسماء الجديدة غير العربية «**يورومارشيه**» ، «**هارديز**» ، «**ماريوت**» ، «**شانكريلا**» ، مهرجان من الأسماء المستوردة التي غزت مدينته ترتفع في تحدٍ لتغيِّر من قسماتها وملامحها وسحنتها العربية .

حتى أسماء الناس تغيَّرت!! .

هذا يسمَّى «**سونيا**».. وآخر «**ناني**».. وثالث «**سوسو**».. و«**داني**».. أي صورة سوف يكون عليه الجيل القادم ؟.

فجأة توقف صاحب سيارة «**ونيت عراوي**».. اقترب منه..

حيَّاه.. ثم سأله عن اتجاه الشارع.. ردَّ عليه صاحب «الونيت العراوي» :

● جيتك يا عبدالمعين تعينني، وجدتك يا عبدالمعين تنعان !!.

– **ماذا تقول ؟.**

سأله.. رغم أنه فهم ما يعنيه .

أجاب صاحب «الونيت العراوي» :

– **من أية ديرة أنت ؟.**

ثم تركه منصوباً كعمود الكهرباء على قارعة الطريق دون أن ينتظر رده .

نظر إلى ساعته.. أكثر من ساعة مرَّت دون أن يعثر على من يحدد موقعه من خارطة الرياض.. هو يعرف أنه في المدن الأوربية الكبيرة مثل **باريس ولندن** لا يستطيع الإنسان التنقل إلا بواسطة خارطة.. ترى هل تحوَّلت الرياض إلى مثل هذه المدن خلال هذه السنوات القليلة ؟.

يبدو أن «**ماكلوهان**» لم يكن مبالغاً ولا مجنوناً حين قال : **إن العالم يتحول إلى قرية كونية واحدة!!.**

سار قليلًا.. ثم انحرف إلى شارع فرعي.. رأى حانوتاً صغيراً.. حين اقترب منه قرأ «**بقالة العروبة**».. شعر بالحزن حين رأى أن العروبة انكمشت إلى بقالة صغيرة في شارع فرعي في مواجهة طغيان

«السوبرماركات» الضخمة.. ردَّد في نفسه ما قاله شاعر الأغنية المسكونة بالشجن الكبير :

يــــا زمـــان العجـــــايب

ويش بعـــد مـــا ظهـــــر

دخل البقالة.. حيًّا صاحبها.. رد عليه «**مرهبا رفيق**».. شعر أنه لطمه على وجهه.. عادت الزوبعة.. أحس بشيء من الإغماء.. ثم أفاق .

حيًّا صاحب البقالة مرة أخرى.. فتلقى اللطمة ثانية «**مرهبا رفيق**»!!.

– لن أسأله.. فاتني أن الناس في شوارع المدن العالمية الكبيرة المسكونة بخليط من أجناس البشر واللغات لايحدِّث بعضهم البعض الآخر.. الكل مشغول.. كأنهم مجموعة من البكم.. مثلهم مثل السيارات.. اللغة السائدة هي لغة إشارات اللوحات المنتشرة في كل مكان .

هو يعرف أنه في الأسواق الكبيرة الضخمة التي شاهدها خلال زياراته إلى بعض المدن الأوربية العالمية الكبرى تتعطل لغة الحديث.. كل شيء بالأرقام والكتابة.. لن يجد الإنسان من يرد عليه فيما لو أراد أن يسأل عن شيء ما.. كل واحد يجر عربة صغيرة.. يلقي فيها كل ما تشتهيه نفسه مما أفرزته مدنية الصناعة.. كيمياء في كيمياء.. وكل شيء في علب إلى حد أنه يخيَّل إليك أن الناس في هذه المدن عبارة عن

علب.. قوم تنكروا للطبيعة.. كل منتجات الطبيعة حقنوها بالمواد الكيماوية فتحوَّلت الأجسام البشرية إلى مواد كيماوية.. حتى العلاقات الإنسانية أصبحت محقونة بالكيمياء .

والحب.. هذا الساحر الكبير الذي ذهب بعقول الناس في الشرق شعراء وغير شعراء.. وحوَّل أغانيهم إلى أهرامات من اللوعة والحرمان.. وليال من السهد والعذاب.. هذا الساحر تحول في المدن الأوروبية إلى مادة كيماوية.. وضعوه في العلب وواجهات المحلات.. وكثير من صوره ملقاة على الأرصفة المظلمة، والشوارع الخلفية الرطبة.. مزَّقوه أسوأ تمزيق.. وشوَّهوه أبشع تشويه .

ترك كل شيء وعاد إلى سيارته.. انطلق بسرعة كالهارب من كل شيء ، وصوت عجلات السيارة يجلد الشارع.. شعر بالخجل.. فهو لم يعد مراهقاً.. ولم يمارس «التفحيط» بالسيارات كما يمارسه شبان اليوم الهارب من كل شيء.. والباحث عن لا شيء!!.

حين صعد أحد الجسور الحدباء رأى **برج الإعلام**.. أيقن أنه أصبح على مقربة من **التليفزيون، والناصرية، وشارع الخزان**.. وضع شريطاً من أشرطة «الكاسيت» في مسجل السيارة فجاءه **صوت فيروز «مافي حدا لا تندهي ما في حدا.. عتمة وطريق وطير طاير عاالهدا»** .

صوت الغربة يطارد الجميع.. والكل في حالة اغتراب.. لا فرق أن تكون في مدينتك أو في جزر «**الواق واق**» حين تضيع معالم الطريق أمامك!!.

هذا هو **شارع الخزان**.. الشارع الذي عاش فيه فترة من عمره.. عرف كل وجوهه.. حتى الحجارة أقام معها نوعاً من الصداقة.. كل شيء تغيَّر في هذا الشارع.. هذه البنايات الأسمنتية الضخمة أتت على كل شيء.. والمقهى الذي كان يرتاده في هذا الشارع تحول إلى بناية أسمنتية.. كل شيء تحول إلى أسمنت.. حتى الناس الذين يسيرون في الشارع تحولوا إلى أسمنت!!.

انتهى إلى **شارع «البطحاء»**.. هذا الشارع تحول أيضاً إلى جسور حدباء.. حاول أن يجد موقفاً لسيارته دون فائدة.. ذهب إلى إحدى الشوارع الصغيرة المتفرعة من **شارع الوزير**.. بعد عناء.. وجد موقفاً.. جندي المرور منعه.. أمره في حِدَّة بأن يذهب إلى المواقف العامة .

- **وأين هي المواقف العامة ؟**.

سأل جندي المرور الذي لم يرد.. لكن أحد المارة قال له.. اذهب إلى موقع «**شلَّقَه**».. لقد حولوها إلى مواقف عامة .

سار على قدميه في شارع الوزير بعد أن أودع سيارته في المواقف العامة.. كان في الماضي يجد أكثر من موقف لسيارته في هذا الشارع الذي لم تتغير ملامحه كثيراً.. لكن الناس ليسوا هم الناس.. كل الوجوه ملونة.. أصفر وأسود وأبيض وبين بين.. أصبح شارعاً عالمياً يكتظ بكل الجنسيات.. وأنواع الأزياء.. كلهم جاءوا للعمل.. الرياض تحولت إلى ورشة أسمنت وحديد وبشر.. إنها ضريبة المدنية.. وغداً سيعودون إلى أوطانهم.. تاركين من ورائهم «**الهمبورجر**»

و«**الاستيك**» و«**البفتيك**».. مع انحسار وغياب «**القرصان**» و«**المطازيز**» و«**الجريش**» و«**المرقوق**» .

أحس بالضيق رغم أن شارع الوزير كان قبل عشر سنوات بالنسبة له متنفساً يرمي على قارعته شيئاً من همومه الصغيرة بين كل فترة وفترة..

كل الظباء المبرقعة هجرت الشارع هرباً من القطاط والخرفان والعجول .

أسرع نحو المواقف العامة.. أخذ سيارته.. أراد أن يهرب إلى إحدى المقاهي المنتشرة في طريق «**خريص**».. لكنه لم يجد خريص.. ولم يجد مقهى.. وضاع مرة أخرى..!!.

(*) نشرت هذه القصة في مجلة «الفيصل» الثقافية الشهرية التي تصدر عن «دار الفيصل الثقافية» بالرياض العدد (٨٥) الصادر في رجب ١٤٠٤هـ .



عَبْدُه .. الراعي(*)



كان اسمه «**عبده**»!!

هكذا عرف في جانبٍ من المدينة الصغيرة التي بدأت تنمو.. لكنها ما تزال تحيا جزءً من حياة القرية!!.

في كل منزل كانت توجد أغنام وأبقار.. كل بيت يحرص أن يكون له غنمه الخاص وبقرة واحدة، أو بعض بقرات.. منها يشرب حليبه ومشتقاته.. لم يكن يحتاج لشراء ذلك من السوق.. وإذا كان هناك نفر ممن تضطرهم الظروف للشراء من السوق فهو إما من الغرباء النازحين غير المعروفين.. أو من الفقراء .

في كل منزل، في هذه المدينة الصغيرة كان يخصص جزءً من مساحته للغنم والبقرة.. أو بعض البقر يطلقون عليه «**الدَّارة**» .

حتى الدجاج والديكة لا يخلو منها أي منزل.. فالناس رغم تمدنهم وامتلاك بعضهم للسيارات إلا أنهم ما يزالون يتعاملون مع الطبيعة وحياة الطبيعة.. ولهم مزارعهم خارج المدينة..

و «عبده» صاحبنا، لاأحد يعرف أصله وفصله، ولا من أين

جاء.. لكن أهل الجانب الذي يعيش فيه من المدينة كانوا يعرفونه باسم «**عبده الراعي**».. لم يفكِّر أحد أن يسأله عن أبيه، أو عن أصله وفصله. وإذا أراد أحدهم أن يعرفه قال «عبده الراعي»!!

وقد أضيفت كلمة «الراعي» إلى إسمه بعد أن أصبح يقوم برعي «غنم» جانب من منازل القرية .

يأتي في الصباح الباكر.. والمدينة ما تزال تتثاءب.. وعلى عيونها بقايا النوم رغم أنها تنام مبكرة.. فهي لا تعرف شيئاً من وسائل اللهو البريء.. فالتلفزيون لم يخترع يومها.. و«السينما» كانوا يسمعون عنها ممن يسافرون للتجارة إلى الخارج.. أما الراديو فلم يكن يوجد إلا في منازل الأثرياء.. وأغلبهم كان يعرفه بـ «**راديو ماركوني**» الذي يعمل على «**بطارية**» كبيرة مثل «بطارية» السيارة.. قبل أن تعرف المدينة «الراديو» الذي يعمل على «البطاريات الجافة» التي تتكون من مجموعة من «البطاريات» الصغيرة المعروف استعمالها اليوم في ألعاب الأطفال .

المدينة.. لم تكن لها شوارع مضاءة أو مزفتة، أما المنازل فكانت تضاء بالفوانيس العتيقة، والأثرياء يستعملون الأتاريك عند المناسبات أو في أماكن البيع والشراء الخاصة بهم .

أما الفقراء فيستعملون نوعاً من وسائل الإضاءة يقال له «**لمبة**».. عبارة عن علبة صغيرة مجوفة من التنك لها رأس مجوف مفتوح من

طرفه العلوي تخرج منه فتيلة.. وتعبأ «اللمبة» «بالكيروسين».. ثم يشعل رأس الفتيلة البارز .

يأتي «عبده.. الراعي» فيطرق أبواب المنازل كل صباح.. تفتح له الأبواب لتستقبله الأغنام.. كان أهل المنازل يعرفون أنه لا يأتي غيره في هذا الوقت .

يجمع الأغنام.. غنمة من هذا المنزل.. واثنتين من منزل آخر.. وأربع من المنزل الثالث.. هكذا.. حتى يجمع عدداً لا بأس به من الغنم التي صارت مع مرور الزمن تعرف «عبده» وتنقاد له في سهولة ويسر.. تسير أمامه.. يأخذها إلى خارج المدينة لترعى الحشائش.. وترد أحواض مياه الآبار الواقعة خارج المدينة!!.

وكثيراً ما كان «عبده» يقوم بملء حوض الماء إذا وجده فارغاً.. ولا يعود لها حتى تكون الشمس تستعد لوداع المدينة أمام زحف خيوط المساء .

لم يكن «عبده» يتحدَّث كثيراً مع الناس كأنه تعلم لغة الغنم.. فهو يستطيع بصوت معيَّن أن يعيد تيساً أو غنمة أو خروفاً إلى قطيعه إذا رأى أنه قد خرج عن هذا القطيع.. ويستطيع أن يوقف التيس «الشقي» عن ممارسة حركاته التي تربك مسيرة الغنم.. بل كان يطلق بعض الأسماء على كل غنمة أو تيس بطريقته الخاصة .

كان يأخذ قطيعه إلى خارج المدينة لمسافة تبعد ثلاثة أو خمسة

«كيلو مترات» عن المدينة حيث تكثر الأماكن الصالحة لرعي قطيعه .

كان شديد الحرص ألا تعتدي بعض الأغنام على المزارع .

وعند الظهيرة يفتح كيساً يحمله على كتفه ليخرج منه بقايا عيش احتفظ به من البارحة ليأكله مع شيء من الشاي الذي يصنعه بنفسه، ثم يشرب ماءً من قربة صغيرة يحملها على كتفه أو حوض أحد الآبار..

ولكي يحمي رأسه من حرارة الشمس كان يضع مظلة على رأسه من الخلف.. أو يأوي إلى شجرة وارفة الظلال فيتكيء على جذعها، ويخرج مزماره ليردد عليه بعض النغمات بطريقته الخاصة.. وكان يميل إلى نوع معين من الأصوات الغنائية المعروفة يسمى «الطَّارِق» حيث لا يحتاج إلى آلة تساعده على الإيقاع .

وكان يحفظ عدداً من أبيات شعر «الطَّارِق» الشعبي وبخاصة في الغزل، والتشبب ووصف محاسن المرأة البدوية، وقليلًا ما يتعرض في غزله لبنات المدينة لأنه لا يود أن تتجاوز مشاعره بنت البادية .

وهو في هذه الحالة لم يكن يغفل عن مراقبة قطيع الغنم والنعاج والخرفان الموكل برعيها ورعايتها.. فهذه مسؤوليته، وهذا عمله، ومصدر رزقه.. وأمانة في عنقه .

في أيام الصيف يبدو «عبده» كاشف الصدر، يغطي نصف جسمه السفلي بقطعة من قماش يسمونه «**الحوك**».. أما في الشتاء وهو ليس

شديد البرودة، فإنه يتقي نسمات الصباح الباردة بقطعة من القماش الآخر يلفه على جزئه العلوي يسمونه «المدرعة» .

قبل أن تودع الشمس المدينة يعود «عبده» إليها بقطيعه ليودع كل منزل أغنامه أو نعاجه أو خرافه.. ثم يذهب ليقضي ليله تحت «عريش» من القش صغير في طرف المدينة .

في نهاية كل أسبوع يأخذ من أصحاب المنازل ما يقسم به الله من قروش تساعده على قضاء حاجاته المتواضعة!!.

لم يكن أحد يعرف ما يدور في رأس «عبده» ولا نوع الأحلام التي تدور في مخيلته.. كان قليل الكلام.. أكسبته حياة الرعي والريف والشمس نوعاً من السمرة.. وكان لا يحلق شعر رأسه - كما هي عادة أهل البادية في المنطقة - .. كان يقسمه إلى نصفين من الوسط، ويشده بحبل على رأسه والناس يطلقون على هذا الشعر «الجَهْفَة» .

أما في أيام الأعياد فكان يعني بتزيينه بوضع خصل «الكاذي»، وبعض الأشجار التي تفوح منها رائحة زكية.. ويغير قطعة القماش الباهتة التي يغطي بها نصفه السفلي بلباس نوع من القماش الملوَّن يسمونه «المصنف» ويضع على جزئه العلوي نوعاً آخر من القماش الملون يسمونه «المصري».. وأحياناً من القماش «البفتة» يشتريه جاهزاً من دكاكين سوق الخياطين .

في يوم العيد يمر على أصحاب المنازل التي يعرفها، ليهنئهم بهذه المناسبة فيعطونه بعض القروش، وبعض الوجبات التي تعمل بطريقة

خاصة في يوم العيد.. ثم يحمل كل ما حصل عليه ويذهب إلى عريشه في طرف القرية .

في أحد الأيام عاد القطيع عند الغروب وحده.. لكن «عبده» لم يأت.. وكانت الأغنام بحكم العادة تعرف منازلها.. والأبواب عادة مفتوحة فتدلف إلى المنزل بحيث يعتقد أهل المنزل أن «عبده» هو الذي عاد بها .

وفي صباح اليوم التالي لم يأت «عبده» لأخذ الأغنام كالعادة.. لم يستغرب الناس ذلك فقد ظنوا أنه مريض كما يحدث من حين لآخر .

وجاء صباح يوم ثان وثالث.. لكن «عبده» لم يأت كعادته .

استغرب الناس.. ظنَّ بعضهم أنه رحل عن المدينة.. وظنَّ البعض الآخر أنه قد ترك حياة الرعي..

ثلاثة من الرجال ذهبوا إلى العريش الذي يأوي إليه، لكنهم لم يجدوه ووجدوا حاجاته داخل العريش .

استغربوا اختفاءه.. عقدت الدهشة وجوههم.. أخذوا يتساءلون فيما بينهم :

- تُرى.. أين ذهب «عبده».. هل حصل له مكروه ؟

لكنهم لم يجدوا أي جواب لأسئلتهم الكثيرة .

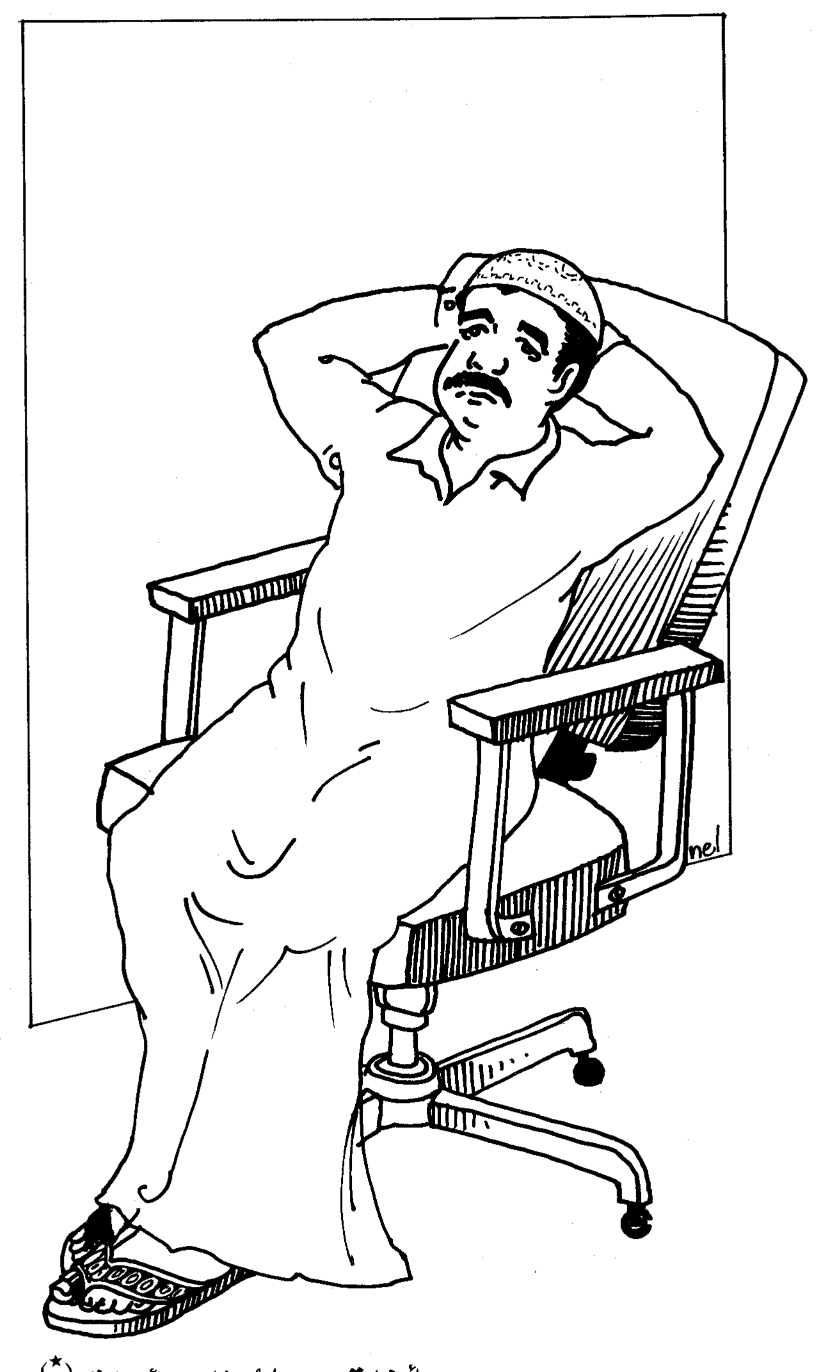
ولأنهم يعرفون أماكن الرعي التي يذهب «عبده» بقطيع الغنم

والبقر إليها فقد ركب كل واحد منهم حماره..

ذهبوا للبحث عنه فوجدوه ميتاً.. لقد أكلته الذئاب وهو يدافع عن القطيع !!

(*) نشرت هذه القصة بمجلة «الحرس الوطني» الشهرية بالرياض – العدد (٦٧) – السنة التاسعة رمضان ١٤٠٨هـ مايو ١٩٨٨م .





أرزاق .. يا دُنيا .. أرزاق (*)



غرفة الفندق يسكنها الضجيج.. وصدره يحترق بالحزن !!

لم يكن بالغرفة أحد لكنه كان يشعر أن ضجيجاً يحتلها عنوة.. وأن الناس خارج الفندق رغم أنهم يغطون في سبات عميق إلا أنه كان يخيّل إليه أن أهل المدينة يقومون بتظاهرة غير منظمة ودون أي سبب.. حتى الأطفال كانوا يدسون أنفسهم وسط التظاهرة الغبية !!

فكَّر أن يشارك في فوضى هذه التظاهرة.. لكنه تراجع حين وجد أن أمرها لا يهمه !!

الغرفة تضيّق عليه الخناق رغم اتساعها.. كان التلفاز يذيع نشرة الأخبار.. سارع لإسكاته.. لقد ملَّ أخبار السياسة والأنباء المكررة التي لا تضيف لمعلوماته شيئاً يذكر.. اعتاد على مطالعة عناوين بعض الصحف القديمة في دقائق ثم يلقي بها جانباً لأنها تقتات على موائد وكالات الأنباء المطهية في مطابخ مشبوهة يعشش فيها العنكبوت.. ومع ذلك يقبضون نقوداً كثيرة من كل أنحاء العالم !!

- أرزاق.. يادنيا.. أرزاق !!

عبارة يرددها مُغنّ يحبه الناس ويكرهونه في الوقت نفسه.. جنى الملايين من صوته.. ويموت ويجوع آخرون دون أن يجدوا قيمة الدواء لعلاجهم في بعض الأحيان .

عالم غريب !!

يا للغباء والحماقة.. واحد يكسب الملايين.. وآخرون يأكلون ورق الشجر.. إنها الكارثة !!

أعاد فتح التلفاز بعد أن غيّر القناة أملًا في أن يجد حلًا لمأساته التي يعيشها دون أن يعلم ماهيتها.. والليل يتمطّى كأفعى لاترى رأسها وذنبها.. سمع صرير كوابح سيارة يقودها مهموم أو مغرور .

تناوشته الهواجس.. تحوَّلت الغرفة إلى مكان للرعب والجن والشياطين.. انطلق خارجاً.. دسَّ نفسه داخل مصعد الفندق.. ضغط على زر القاعة السفلى.. اكتشف أنه يرتدي ملابس النوم!!

مظهر غير حضاري!!

شعر بالخجل رغم عدم وجود نزيل في ذلك الوقت.. أوقف المصعد.. وعاد إلى غرفته.. صمت ضجيج الغرفة.. والتظاهرة اختفى صوتها !!

- ماذا حدث ؟

لم يجد جواباً.. ابتلع السؤال.. ودلف إلى الحمّام.. اغتسل بماء دافىء بحثاً عن النوم.. نصيحة سمعها من أحد الأطباء..

حاول أن يهدىء من ارتياعه.. ويريح نفسيته المعذبة بكل هموم الدنيا كأنه المسؤول عن كل ماحدث!!

– **أأنا إنسان غير طبيعي ؟**

سأل نفسه والماء الدافىء ينسكب على جسمه .

حين خرج من الحمَّام سمع طرقاً على باب الغرفة.. توقف..

– **أيفتح الباب أم يترك الطارق؟**.. سأل نفسه

– عيب !!

قالها وهو يفتح الباب فإذا أحد أصدقائه يقف في وجهه..

– **ما الذي جاء به في هذا الوقت المتأخر من الليل.. أية رياح مجنونة حملته إليه.. إنه في هذه اللحظة بالذات في غير حاجة لزيارة الآخرين!!** قالها في نفسه ثم دعاه إلى الدخول.

– **ما هذه المفاجأة ؟** سأله ببرود لم يدركه صديقه .

● لقد شعرت أنني في حاجة إليك لأنني أحس بتعب نفسي !!

– **أيوجد طبيب نفساني يستقبل مرضاه ليعالجهم في غرفته دون أن يعلم به ؟**

سؤال.. شعر بالخجل أن يقوله لصديقه !!

– **لماذا لم يتصل بي قبل مجيئه ؟**

سؤال آخر ابتلعه كالمسامير.. ليس من الذوق أن يستقبل صديقه بهذا النوع من الأسئلة المنفِّرة !!

– **هل تطلب شيئاً ؟**

سؤال قاله بفتور.. والحنق يغلي في داخله !!

– أريد كأساً من عصير البرتقال أو الليمون الطازج لعله يهدئ أعصابي فتهدأ حالتي النفسية .

من حسن حظه ، وسوء حظ صديقه أن الفندق لا يقدم شيئاً لزبائنه في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.. لكنه نسي أو تناسى ذلك.. حاول مراراً طلب العصير بواسطة الهاتف دون أن يجيب أحداً !!

– يؤسفني يا صديقي أن هذا الفندق سيئ.. لا يعرف قيمة الناس أمثالك.. إنه لا يرد لأنه قد أغلق أبوابه.. يبدو أنه لا يقدِّم شيئاً في هذا الوقت المتأخر.. حظي سيئ معك !!

– ولماذا لا تسكن في فندق أفضل من هذا.. فندق يقدم طلبات الزبائن في كل حين.. وطوال الأربع والعشرين ساعة ؟

– أرزاق.. يا دنيا.. أرزاق!!

قالها في نفسه، وهو يكتم غيظه وحنقه من تفاهة السؤال، لأن هذا الصديق من أعرف الناس بظروفه المادية.. وأحواله الحياتية !!

(بعض الناس لا يشعرك بغبائه.. وبعضهم يتوقف عند حدود هذا الغباء.. والبعض يتذاكى متناسياً غباءه.. والأغبى من يجهل أنه غبي.. وأنت أمام كل هذه الأصناف الممسوخة تجد نفسك في حالة من التوتر والرغبة في صفعهم بيدك أو بما في يدك أو بأية وسيلة قريبة من يدك) .

- هل سرحت؟.. سأله صديقه..

- أرزاق.. يا دنيا.. أرزاق!!

قالها في نفسه ثم أجاب صديقه :

- لم أسرح.. لكني أشعر أنني أبدو في بعض المواقف غبياً وعاجزاً عن الفهم.. فهل يعني هذا أنني مريض نفسياً ؟

- أنت في حاجة للذهاب إلى طبيب نفساني لمعالجتك قبل استفحال مرضك ؟

(مجنون هذا الصديق.. إنه يهذي.. أيعقل أن أكون مريضاً وأنني في حاجة إلى طبيب نفساني ؟ وهل الناس كلهم أسوياء.؟ وهذا الصديق هل يظن أنه بمجيئه في مثل هذا الوقت يتصرف بعقل ؟) .

تذكر تلك الحكاية التي يرويها الناس عن شخص دخل مصحاً للأمراض العقلية والنفسية لعدة أشهر.. وحين خرج سأله الذين يعرفونه :

- ما الفرق بين أولئك الذين داخل المصح النفسي.. وبين الناس الذين خارجه ؟

كان عليه أن يرد عليهم بجواب أكثر حماقة من حماقة السؤال.. لكنه تمالك نفسه وقال لهم :

- اكتشفت أمراً بسيطاً جداً لم ينتبه إليه أحد.. وهو أن الفرق لا يخرج عن كون لوحة المصح مقلوبة.. وأطالب بتصحيحها !!

كان بوده أن يروي هذه الحكاية على بساطتها لصديقه.. لكنه

آثر الصمت لأنه في حاجة إليه.. وفي حاجة أن يرحل هذا الصديق إلى جزيرة نائية تسكنها الذئاب ليسلم من غبائه.. وتسرعه في إصدار الأحكام القاتلة !!

تشاغل بقراءة جريدة قديمة ليريح أعصابه

- **أهذه جريدة اليوم؟**.. سأله صديقه .

لم يرد عليه.. رماها عليه وهو يردد في أعماقه «**أرزاق.. يادنيا.. أرزاق**» !!

سحب صديقه الجريدة فوجد أن تاريخ صدورها قديم جداً.. أعادها إلى مكانها قائلًا :

- **إنها جريدة لا تصلح للقراءة.. هي صورة من كثير من الجرائد أمثالها.. وقد مرَّ عليها أكثر من أسبوعين.. لماذا لا تقرأ الصحف في أوقاتها يومياً لتتعرف على ما يجري من أحداث ؟**

لم يرد عليه.. استأذنه أن يذهب إلى الحمّام.. أطال البقاء.. صوت صديقه يودِّعه لم يرد عليه.. سمع صوت الباب وهو يغلق فسارع إلى الخروج.. كانت لديه رغبة جامحة أن يصيح بأعلى صوته ليسمع كل سكان المدينة «**أرزاق.. يادنيا.. أرزاق**».. لكنه قتل هذه الرغبة الجامحة في نفسه لأنه كان واثقاً أن لا أحد سيسمعه سوى نزلاء الفندق المجاورين لغرفته الذين ربما هرعوا من غرفهم لمعرفة صاحب الصوت.. وربما شكاه أحدهم إلى إدارة الفندق فيطردونه !!

تذكّر أنه لم يدفع إيجار ومصاريف أسبوعين خلال إقامته في الفندق.. فالتزم الصمت.. وكتم مافي نفسه.. ألقى بجسمه المتوتر على السرير طلباً للراحة.. أحس أن السرير تحول إلى ساحة من البراغيث.. نهض.. رمى غطاء السرير جانباً.. وألقى بنفسه على السرير مرة أخرى لكنه في هذه المرة داخله شعور أن السرير نفسه يسكنه البق !!

سحب وسادة وألقاها في أرض الغرفة.. استعد للنوم.. وهو يردد: **«أرزاق.. يادنيا.. أرزاق» !!**

(*) آخر قصة كتبتها في إحدى الليالي في غرفة من غرف فندق في مدينة جيزان في شهر جمادى الأولى ١٤٠٩هـ الموافق ديسمبر ١٩٨٨م .



الفهـرست



من منشورات الدار المطبوعة

(١) السمكة.. والبحر -قضايا وقراءات في الأدب والفكر- تأليف: علوي طه الصافي (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) -ط (١)

(٢) الاضطرابات النفسية عند الأطفال - تأليف: د. قتيبة سالم الجلبي (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) - (سلسة علم النفس «١») - ط(١)

(٣) الحب.. احتراقاً - تأليف: د. هاشم عبده هاشم (١٤٠٩هـ-١٩٨٨م) - ط (١)

(٤) فكرة.. قصة الأديب الراحل الأستاذ أحمد السباعي - الحائز على جائزة الدولة التقديرية في الأدب - ط (٢) (١٤٠٩هـ -١٩٨٩م) - (سلسة القصة والرواية «١»)

(٥) . . والحزن لا يغسل الهموم - تأليف: د. هاشم عبده هاشم (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م) - ط (١)

(٦) قصائد تخاطب الإنسان - ديوان شعر للأستاذ الشاعر سعد البواردي - (سلسلة ديوان العرب «١») - ط (١) - (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)

(٧) احمرار الصمت - ديوان شعر جديد للشاعر إبراهيم عبدالله مفتاح - (سلسلة ديوان العرب «٢») - ط (١) - (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)

(٨) أرزاق.. يادنيا.. أرزاق - مجموعة قصصية - تأليف علوي طه الصافي - (سلسلة القصة والرواية «٢») - ط (١) -(١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)

منشورات تحت الطبع

(١) أول ديوان شعر غنائي لصاحب السمو الملكي الأمير الشاعر بدر بن عبدالمحسن - ط (١)

(٢) العودة سائحاً إلى كاليفورنيا - تأليف: د. غازي القصيبي -(سلسلة أدب الرحلات) - ط (١)

(٣) نَوْرة الخزامى - ديوان شعر جديد للأستاذ الشاعر عبدالله حمد القرعاوي - (سلسلة ديوان العرب) - ط (١)

(٤) مواقف نقدية - تأليف الناقد الدكتور منصور الحازمي - ط (١) - (سلسلة النقد والدراسات الأدبية)

(٥) زمن يليق بنا (رواية جديدة) تأليف الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري الحائز على جائزة الإبداع العربي من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس - (سلسلة القصة والرواية) - ط (١)

(٦) اسبانية تحسب قلبي بئر بترول - تأليف: علوي طه الصافي - ط (١) - (سلسة أدب الرحلات)

(٧) كتاب للدكتور يحيى ساعاتي عن صحيفة «المصباح» اليهودية - ط (١) - (سلسلة الدراسات الإعلامية)

(٨) الأشجار تورق من الداخل - ديوان شعر جديد للشاعر علي آل عمـر عسيري - (سلسلة ديوان العرب) - ط (١)

(٩) يازمان العجائب!! - تأليف: علوي طه الصافي - ط (١)

(١٠) عودة الرحَّال - مجموعة قصصية - تأليف: الدكتورة خيرية السقاف - (سلسلة القصة والرواية) - ط (١)

(١١) الطريق إلى نعم – تأليف: روجر فيشر، ووليام أوري – ترجمة الدكتور سعيد بامشموس – ط (١)
(١٢) دراسات إعلامية – تأليف الدكتور عبدالقادر طاش (سلسلة الدراسات الإعلامية) – ط (١)
(١٣) البعد الذي يغيب (رؤى داخلية لما هو أقصى) – تأليف: الدكتورة خيرية السقاف – ط (١)
(١٤) قراءات في الأدب السعودي – تأليف: علوي طه الصافي – ط (١) – (سلسلة النقد والدراسات الأدبية)
(١٥) كتاب عن المجتمع السعودي في الماضي – تأليف الأستاذ فهد العريفي – ط (١)
(١٦) مطلّات على الداخل – مجموعة أقاصيص – ط (٢) تأليف: علوي طه الصافي – (سلسلة القصة والرواية)
(١٧) لقاءات وحوارات مع أدباء سعوديين – تأليف: علوي طه الصافي – ط (١)
(١٨) لقاءات وحوارات مع أدباء عرب – تأليف: علوي طه الصافي – ط (١)
(١٩) بعض الظن – مجموعة قصصية تأليف الأستاذ خليل إبراهيم الفزيع – (سلسلة القصة والرواية) – ط (١)
(٢٠) الجوائز الأدبية والعلمية والفنية في الوطن العربي والعالم – تأليف: علوي طه الصافي – ط (١) –(سلسلة النقد والدراسات الأدبية)
(٢١) القصة والرواية في منطقة جيزان – تأليف علوي طه الصافي – ط (١) – (سلسلة النقد والدراسات الأدبية)

(٢٢) الخوف والنهر - مجموعة قصصية تأليف الدكتور عبدالله باقازي - (سلسلة القصة والرواية) - ط (١)

(٢٣) زراعة وإنتاج محاصيل الخضر (جزءان) - تأليف: الدكتور نبيل يحيى عبدالله بخاري - (سلسلة العلوم الزراعية) - ط (١)

(٢٤) عنصر اللون في شعر المتنبي - تأليف: الدكتور عبدالله أحمد باقازي - (سلسلة النقد والدراسات الأدبية) - ط (١)



